

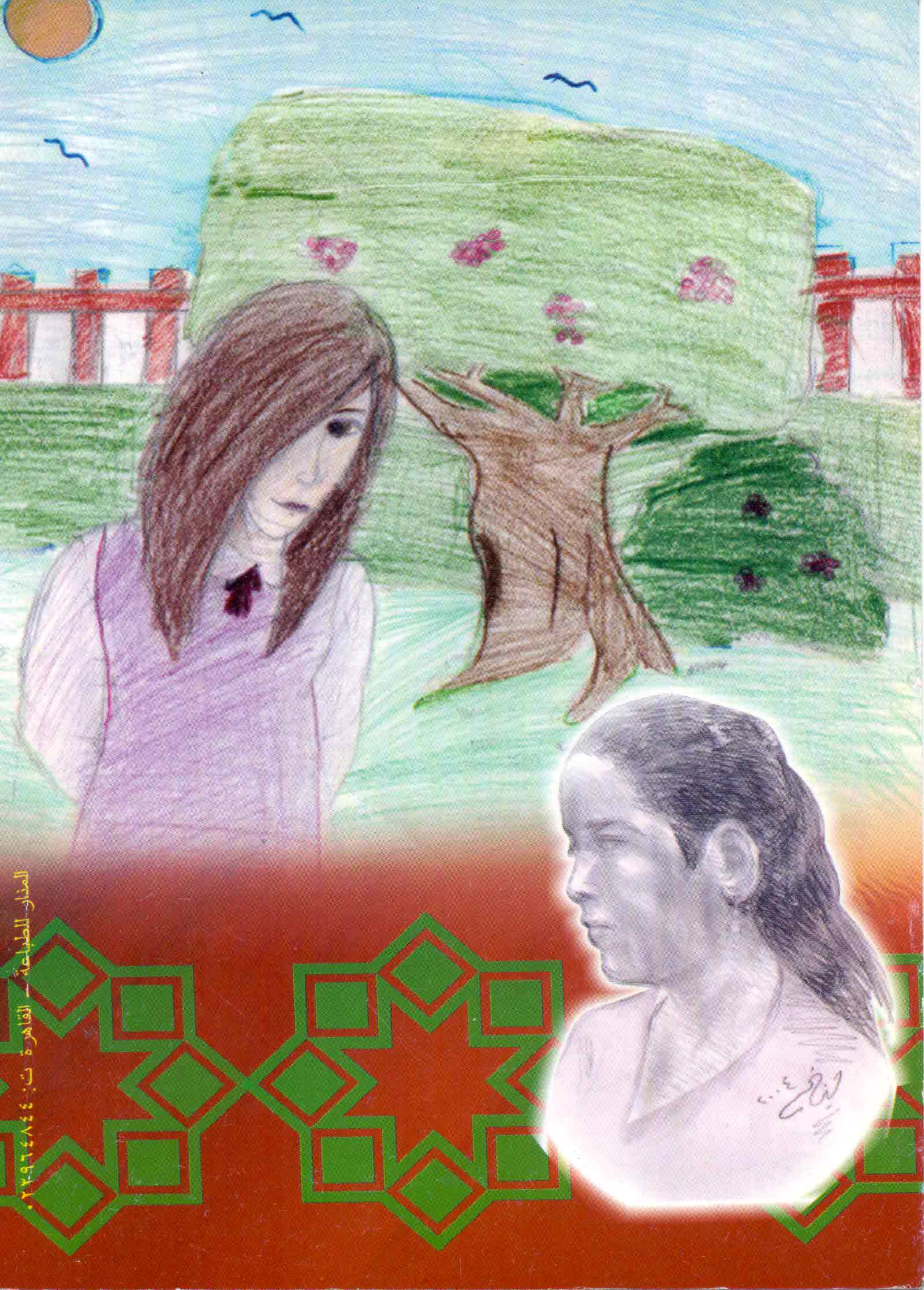
لتحيا اللغة العربية
يعيش سيبويه !

رد على هجوم وكيل وزارة الثقافة فى مصر على لغة القرآن وقواعدها

ض

د. إبراهيم عوض

مكتبة الثقافة
الدوحة - قطر


المنار للطباعة ـ القاهرة ت: ٢٣٩٦٤٨٤٤.

لتحيا اللغة العربية: يعيش سيبويه

(رد على هجوم وكيل وزارة الثقافة فى مصر على لغة القرآن وقواعدها)

لتحيا اللغة العربية: يعيش سيبويه

(رد على هجوم وكيل وزارة الثقافة فى مصر على لغة القرآن وقواعدها)

د. إبراهيم عوض

١٤٢٦هـ ــ ٢٠٠٥م

مكتبة الثقافة

الدوحة ــ قطر

تمهيـــــد

مـــنذ عـــدة أيام استضافتنى قناة التنوير المصرية أنا ود. عبد الله الـــتطاوى ود. عبد المنعم تليمة، فى برنامج "للودّ قضية" لمناقشة أ. شريف الشوباشـــى، وكـــيل وزارة الثقافة المصرية، فى آرائه حول اللغة الفصحى والعمـــل عـــلى تطويرها كى توائم العصر الحديث من وجهة نظره، تلك الآراء التى بثّها فى كتابه: "لتحيا اللغة العربية: يسقط سيبويه". وكان رأيى أنـــا ود. الـــتطاوى مختلفا إلى حد كبير مع رأى المؤلف ود. تليمة، الذى وقف إلى جانب صاحب الكتاب يعضد كل ما يقول ويدافع عنه بحرارة. ثم طلـــب منى عقب ذلك بعض الأصدقاء الصحفيين أن أكتب لهم موجز رأيى فى دعوة الأستاذ الشوباشى ففعلت. ثم بدا لى أن أسجل أفكارى فى ذلـــك الموضـــوع فى بحثٍ مفصَّلٍ، فكان هذا الكتاب الذى بسطت من خلالـــه وجهـــة نظـــرى فى القضية المذكورة على نحو منهجى مرتب مما يصـــعب توفره فى المناظرات التلفازية أو الحوارات الصحفية. وكل الذى أرجوه ألا تكون أخطائى فيما كتبته هنا فادحة ولا فاضحة، وأن يتقبل الله عمـــلى ويجعلـــه خالصًا لوجهه الكريم، وأن يوفقنا جميعا لما فيه عزة أمتنا

وعـــزة لغـــتها وثقافتها، وأن يبوّئها بين الأمم المجيدة مكانا عليًّا بدل هذا الهـــوان الـــذى أطْمَـــعَ فيها من يساوى ومن لا يساوى. وهو، سبحانه، بالإجابة جدير.

(القاهرة فى الحادى والعشرين من يوليه لعام ٢٠٠٤م)

الرد على الأستاذ الشوباشى

أصـــدر الأســـتاذ شريف الشوباشى، وكيل وزارة الثقافة المصرى للشـــؤون الخارجـــية، منذ أشهر قلائل كتابا عنوانه "لتحيا اللغة العربية: يســـقط سيبويه"، تناول فيه اللغة العربية الفصحى والكلام الذى يثور فى العصر الحديث بين الحين والحين عن صعوبة قواعدها عارضًا الوسائل التى يراها كفيلة بالقضاء على هذه الشكوى مع الحفاظ على الفصحى فى ذات الوقـــت حسبما جاء فى كلامه. وهو ينطلق مما يقول إنه لاحظه فى التقويم الســـنوى العـــالمى المسمى بـــالـــ"ألمناك" لعام ٢٠٠٤م من تراجع اللغة العربـــية عـــن المكانـــة التى كانت تشغلها قبلا، بما يُفْهَم منه منه أنها قد أُسْقِطَتْ من هذه المطبوعة التى تهتم بإيراد أحدث الإحصاءات والمعلومات الأساســـية فى كـــل المجالات فى العالم. يقول كاتبنا إن الـــ"ألمناك" لم تَعُدْ تـــنظر إلى لغتنا بوصفها لغةً قائمةً بذاتها، إذ اللغة إنما جُعِلَتْ لتكون أساسا للتفاهم اليومى بين الناس لا لتكون أداة للدراسة والتعليم. وما دامت اللغة العربية قد انحصر استعمالها فى الدرس والعلم و لم تعد تستخدم فى أغراضنا اليومـــية، فمعـــنى ذلـــك أنها أضحت لغة ميتة، وبناءً على هذا فلا يصح

إدراجهـــا بين اللغات التى لا يزال يستخدمها أصحابها. ثم يمضى قائلا إن الأمر قد هاله وبعثه على التفكير فى هذه القضية، وبخاصة أن تلك المطبوعة هى أحد أهم المراجع بالنسبة لكبار الكتاب والمتخصصين فى الغرب، ومن الخطـــإ إذن أن نأخذ ما جاء فيها باستخفاف. ومع ذلك فلا بد من التنبيه إلى أنـــه رغـــم هـــذا قـــد أشار، ولكن على نحو عارض وسريع، إلى أن الـــ"ألمناك" هو من المطبوعات التى لا تخلو من الأغراض الخبيثة (ص٧ــ ٨). وهنا أحب أن تكون أولى وقفاتى، فمن المؤكد أن ما فعله الـــ"ألمناك" بشـــأن لغتـــنا هو الزيف والتدليس والخبث بعينه ونفسه وقَضّه وقَضِيضِه، ولـــيس له معـــنى غير هذا، ولا يمكن أن يُفْهَم إلا على هذا النحو. ولكن كـــيف ذلـــك؟ المعروف أن اللغة، أية لغة، لها مستويات عدة: المستوى الفصـــيح، ومســـتوى الأحاديث الثقافية للمتعلمين، ومستوى أحاديثهم العاديـــة، ومســـتوى العامة، ومستوى الدهماء والغوغاء. بل إننا فى هذا المســـتوى الأخير مثلا يمكن أن نميز بين ضروب مختلفة من العامية كما هو الحـــال فى لغة بعض الطوائف الخاصة كطائفة اللصوص أو الشحاذين... وهلم جرا. وهذا لون واحد من ألوان التقسيمات اللغوية حسب المستوى الـــثقافى والاجتماعى للمتحدثين بها، وقد تُقَسَّم هذه المستويات على نحو

مختلف بعض الشيء كما فعل د. السعيد محمد بدوى فى كتابه "مستويات العربية المعاصرة فى مصر"(دار المعارف/ ١٩٧٣م/ ٨٩ وما بعدها)، إذ قسمها إلى: فصحى التراث، وفصحى العصر الحاضر، وعامية المثقفين، وعامية المتنورين، وعامية الأميين. بل إن اللغة لتختلف فى البلد الواحد من مكان إلى مكان، مثلما هو الوضع فى مصر حيث تتمايز لغة أهل الصعيد بوجه عام عن لغة الوجه البحرى، وكما تتمايز لغة أهل قريتى عن لغة القرية المجاورة لها مع أنهما توشكان، بفضل التوسع العمرانى، أن تصبحا قرية واحدة. واللغة، فى الواقع، هى كل هذه المستويات، وذلك على عكس ما يريد محرِّرو الـ"ألمناك" أن يوهمونا به من أن اللهجات العامية التى يتحدث بها العرب ليست هى اللغة العربية، وعليه فلا بد من استبعاد هذه اللغة من قائمة اللغات التى لا تزال حية تُستَعْمَل! إن هذا لهو البَكَش بعينه! وإلا فليست هناك لغة واحدة فى العالم ينطبق عليها هذا الشرط الغريب الذى لم يشأ أصحاب الـ"ألمناك" أن يطبقوه إلا على لغة القرآن الكريم لغرض فى نفس يعقوب!

فمعروف أن المستوى الفصيح فى أية لغة يقتصر استعماله على مجال التأليف والإبداع والخطب والمحاضرات والندوات، أما فى الحياة اليومية

فهـــناك مســـتويات أخرى يلجأ إليها الناس لتصريف أمورهم كما أشرنا آنفا. هكذا كانت اللغات البشرية، وهكذا هى الآن، وهكذا ستظل. ومن يقـــل غـــير هـــذا فهـــو إما جاهل أو بكّاش، والذين قاموا على إخراج الـــ"ألمناك" لا يمكن أن يصلوا فى الجهالة إلى هذا المدى المغرق فى السُّفُول، وإلا كانت فضيحة لا تغتفر! فلم يبق إلا أن أن يكونوا بكّاشين. والغرض مـــن وراء ذلـــك أن يغرسوا فى نفوسنا أن لغتنا قد انتهى دورها و لم يعد أمامهـــا إلا أن نواريهـــا التراب وأن نتخذ العاميات عنها بديلا. وهذا فى الواقـــع هو ما يريده منا بعض المستشرقين والمبشرين ممن يعملون على أن يقيموا بيننا وبين القرآن المجيد حاجزا لا يمكن تخطيه، ألا وهو حاجز اللغة، إذ مـــتى مـــا اختفت اللغة الفصحى التى نزل بها كتاب الله فقد حيل بيننا وبـــين ذلك الكتاب، اللهم إلا أن يفكر فى دراسته بعض المتخصصين، أو نـــترجمه إلى اللغة العامية كما سمعنا من ينادى بهذا فى الأشهر الأخيرة فى أرض الكنانة حامية القرآن واللسان الذى نزل به هذا القرآن، وعندئذ لن يكـــون النص المترجَم هو القرآن الكريم بل كلاما عاميا متخلفا ليس بينه وبين أسلوب القرآن المعجز أية صلة، فضلا عن أن الترجمة، بطبيعة الحال، لـــن تكون سوى فهم خاص لذلك النص بما لا بد أن يصاحب هذا الفهمَ

من قصور وأخطاء ونزوات وأهواء. ثم مع توالى الأيام يزداد النص المترجَم ابتعادا عن الأصل الإلهى الكريم...إلى أن نفيق ذات يوم على نص ليس بينه وبين الأصل أية وشيجة.

لكـــن الأســـتاذ الشوباشي يؤكد أنه حريص أبلغ الحرص على اللغة الفصـــحى لأنهـــا، حســـبما جاء فى كلامه، هى الرباط الوحيد الآن بين شـــعوب الأمـــة العربية بعد تفرقهم سياسيا وتمزقهم اقتصاديا. كما يؤكد أيضـــا أنـــه لا يجب أن ينقطع ما بيننا وبين التراث العظيم المكتوب بهذه الفصـــحى، ومـــن ثم فهو لا يفكر فى استبدال العامية بها(ص١٦ــ ١٧، ١٣٨، ١٦٥ــ ١٦٦)، بـــل كل ما يبغيه هو تطوير اللغة العربية بتقريب الفجوة التى تفصل فصحاها عن عاميتها حتى يستطيع الناس أن يتكلموا بها ويكتـــبوا دون أن يقعـــوا فى الأخطاء التى يقعون فيها الآن، وحتى تساير العصـــر الذى نعيش فيه فلا يأتى علينا يومٌ نجد أننا لا بد أن نتخلى عنها لعجـــزها عن الوفاء بمتطلباتنا(ص١٤١)، وذلك من خلال تطوير قواعدها الـــتى لم تتغير طوال عمرها البالغ خمسة عشر قرنا، مخالفة بذلك ما جرى للّغـــات الأخـــرى من عدم توقف قواعدها عن التغيير كل هذه المدة كما حـــدث للغة الصينية التى كانت تتطور قواعدها كل خمسمائة عام، وكما

حصل فى اللغة الإنجليزية أكثر من مرة رغم تاريخها القصير بالنسبة للغتنا، وكمــا أراد الفرنســيون كذلك أن يصنعوا فى لغتهم، وإن لم يصلوا إلى المــدى الذى بلغه أهل الإنجليزية، وبخاصة فى أمريكا، من تبسيط وتطويع انتقلت به هذه اللغة من حال إلى حال لتصبح أسهل لغات العالم تعلما(ص ٤٥ــ ٤٦، ٤٩، ٥٥).

هــذا ما قاله الكاتب، ولكن ما طبيعة التطوير الذى يريد من خلاله التقريــب بين الفصحى والعامية يا ترى؟ إنه يرى أن المفعول به يمثل عقبة كــأداء فى ســبيل إتقان العربية، ومن ثم نراه ينادى بألا يكون منوَّنا، بل يُكْــتَفَى فــيه بالسكون (ص١٧٢). وهو يريد بهذا إلغاء الإعراب، لكن كلامه تُعْوِزه الدقة ووضوح التعبير كما هو بيّن جليّ. كذلك نراه ينادى أيضــا بالتخلص من التأنيث فى الأرقام وفى الجمع معا، فنقول مثلا: "تسع رجــال، وتسع نساء" على السواء، كما نقول: "النساء كلهم أكلوا" بدلا مــن "النســاء كــلهن أكلن"...وهكذا، وهو ما ينسحب على الأسماء الموصولة التى تكتفى العامية فيها بكلمة "اللى" فى كل الحالات(ص١٧١ــ ١٧٢، ١٧٥)، عــلى حــين تستعمل الفصحى مجموعة كاملة منها هى "الــذى والــتى واللــذان واللــتان والذين واللاتى". وبالمثل نجده ينادى

بالتخلص من صيغة المثنى فلا يكون لدينا بعدها إلا المفرد والجمع فقط مثلما هو الأمر فى اللهجة العامية واللغات الأوربية. وعلى نفس الوتيرة يهاجم الجملة الفعلية زاعما أنها تؤدى إلى التباس المعنى بخلاف الاسمية التى تعبر عن المراد بكل وضوح ودقة(ص١٦٨). وفوق ذلك فهو يهاجم العربية لكثرة ما فيها من مترادفات(ص١٧٧ــ ١٨٠)، كما يتهمها بأن فيها نقصا معيبا فى حروف العلة وأن غالبية حروفها ساكنة (ص١٦٨ــ ١٧٠). والمتأمل فى هذه الاقتراحات والاتهامات يلحظ من فوره أنها تكاد تقلب الفصحى عامية بما يباعد بيننا وبين اللغة التى ظل آباؤنا وأجدادنا يستعملونها فى الكتابة والقراءة والتفكير العلمى والإبداع الأدبى لما ينوف على خمسة عشر قرنا، ومن ثم يقيم بيننا وبين التراث العظيم الذى خلّفوه جدارا عاليا سوف يزداد مع الأيام والسنين ارتفاعا وسُمْكا وضلادة، فضلا عن أنه سوف يجعلنا نشعر مع القرآن الكريم بغربة مزعجة لا نجدها الآن، وهو ما يتناقض مع ما أكده فى أكثر من موضع فى الكتاب من أنه لا يهدف أبدا إلى القضاء على الفصحى وإحلال العامية مكانها!

ولست أريد أن أدخل فى مناقشة نيته من وراء ما كتبه فى هذه القضية، فقد يكون حسن القصد فيما يدعو إليه ومؤمنا بأن ما يقوله من

شأنه أن يخدم لغته القومية فعلا، وقد يكون أقدم على هذا الذى كتبه هنا وهــو يدرك أنه سوف ينحلى عن نتائج غاية فى الوخامة، فعلم ذلك كله عــند الله. ثم إنى أعــترف بأن انتسابه إلى الأستاذ محمد مفيد الشوباشى، القصــاص والشــاعر والناقد والمترجم المعروف صاحب الأسلوب المحكم الجمــيل، والمدافــع بمنتهى الشراسة والحق عن أصالة الحضارة الإسلامية والعقلــية العربــية وجمــال لغة الضاد أسلوبا وإبداعا أدبيا رغم أنه كان يساريا، والذى قرأت له عددا من المؤلفات والمترجمات واستمتعت بها غاية الاســتمتاع منها "القصة العربية القديمة" و"رحلة الأدب العربى إلى أوربا" و"الأدب الــثورى عبر التاريخ" و"آسيا وجداول الربيع" لترجنيف و"نافخ البوق" لتوماس هاردى، أقول: إن انتسابه لمحمد مفيد الشوباشى يَغُلّ يدى عــن أن أتــناول ما كتبه فى موضوعنا بنفس الشدة التى أرد بها على من يهــاجمون العربية أو الإسلام. ولقد بلغ من اعتزاز الشوباشى الكبير بلغتنا العبقرية أنه كان ينحى باللائمة على كاتبنا فى شبابه حين يراه يجرى على مــنوال اللغــات الأوربية فى كثير من الأحيان بإيثاره الجملة الاسمية على الفعلية حسبما حدثنا الكاتب نفسه(ص١٦٨)، وإن لم ألاحظ فى الكتاب الــذى بين يدىّ الآن والذى أرسله لى كاتبنا مشكورا ولا فى كتابه الآخر

"الـــداء العـــربى" الـــذى أرسله معه أن للجملة الاسمية الغلبة على غريمتها الفعلية. كما أن الأديب الراحل كان يرفض أشد الرفض استعمال العامية فى الكتابة حتى ولا فى الحوار القصصى. والطريف أنه كان يستند، ضمن مـــا يســـتند إلـــيه فى ذلك الرفض، على التحليلات الماركسية فى الفكر والأدب. ويستطيع القارئ أن يجد شيئا مما كتبه فى هذا المجال فى مقال له بمجلـــة "العالم العربى" القاهرية فى عدد مارس ١٩٥٨م. وهناك سبب آخر يمـــنعنى أن أكون شديدا فى نقد ما كتبه أ.شريف الشوباشى، فقد بدا لى، أثناء مناقشتى أنا ود. عبد الله التطاوى له ولآرائه الواردة فى كتابه المذكور فى الحلقـــة التى سجلتها معنا قناة "التنوير" المصرية من برنامج "لِلـــوُدِّ قضـــيـــّة" مـــنذ أيام، أنه رجل دمث الخلق متواضع، وليست فيه لجاجة بعـــض الكتاب ممن يعملون على التنقص من تراثنا فى الدين أو الفكر أو الأدب. بـــل إنه فى الكتاب الذى نحن بصدد الحديث عنه هنا لم يحدث أن تعـــرض بكـــلمة سوء لأى من رموزنا التاريخية، وكذلك لم يقع أن ذكر الرسول إلا بمنتهى التبجيل والاحترام، كما كان دائم الصلاة عليه إلا فيما نـــدر. وكـــان أدبـــا جميلا منه أن نجده يقول عن هذا الصحابى أو ذاك: "ســـيدنا فـــلان". وفوق هذا كله فقد رأيناه يبتدئ كلامه فى تلك الحلقة

بالقول بأن ما كتبه فى كتابه ذاك إنما هو مجرد رأى قد يكون صوابا، وقد يكـــون خطأ. على أن هذا كله لم يمنعنى فى الحلقة التلفازية المذكورة، ولن يمـــنعنى الآن، من أن أختلف معه غاية الاختلاف إذا رأيت أن كلامه غير منطقى أو أن من شأن الأخذ به أن يقودنا إلى ما لا تحمد عقباه من نتائج.

ويـــنطلق كاتبـــنا فى دعوته إلى تطوير اللغة وقواعدها من منطلقين: الأول أن كـــثيرا مـــن الكـــتاب والخطباء العرب يخطئون فى لغتهم، وأن التلامـــيذ والطلاب يشكون مُرَّ الشكوى من حصة اللغة الغربية ولا يرون فـــيها شـــيئا أكثر من كونها عبئا ثقيلا لا بد أن يتحملوه كى ينجحوا فى امـــتحانات آخر العام، والسلام، غير واجدين أية لذة فى دراستها. ثم إنها ليست وسيلة طبيعية فى التعبير عن أفكار من يستعملها ومشاعره، بل عليه أن يتكلفها تكلفا. والثانى أنها لم تعد تساير العصر أو تفى بمتطلبات التعبير عـــنه بعد أن طال بها الزمن دون أن يطرأ عليها ما تحتاجه من تطور، على عكس اللغات العالمية الأخرى التى لا يكتفى أصحابها بما يعتريها من تطور طبيعى، بل يحدثون فيها ضربا آخر منه يقصدونه قصدا.

يقول أ. الشوباشى: "كثيرا ما فوجئت بكبار المثقفين يخطئون أخطاء لا تُصَـــدَّق فى لغـــتهم الأم الـــتى يكتبون ويبدعون بها، وبعض هؤلاء أو

معظمهــــم يُعَـــدّون من رموز الأدب والكتابة فى مصر والعالم العربى... وعندما كنت أقارن حالنا بالآخرين كنت أجد نفسى مضطرا لأن أعترف بأنـــه لا يوجد مثقف واحد فى فرنسا أو إنجلترا أو إسبانيا أوحتى البرازيل يخطـــئ فى لغـــته الأم بهـــذه الصورة. فهل كل الشعوب العربية بمثقفيها ومفكـــريها أصبحت معوقة ذهنيا بحيث لا تستطيع تعلم اللغة والإلمام بها إلمامـــا سليما؟ وإذا وسّعْنا باب المقارنة مع الآخرين نجد أن أى سكرتيرة متواضـــعة حاصلة على شهادة متوسطة فى أى دولة غربية قادرةٌ على أن تكتب بنفسها خطابا دون أخطاء لغوية... فهل السكرتيرة الفرنسية تمتلك قـــدرات ذهنـــية أرقـــى من المثقفين وأصحاب الشهادات العليا فى العالم العـــربى؟ بالطبع لا. إذًا فالخلل يكمن فى الطرف الآخر من المعادلة، وهو اللغـــة المســـتخدمة عند كل من الطرفين... فاللغة الفرنسية طيعة وسهلة ومباشـــرة، كمـــا أن السكرتيرة، مَثَلُها مَثَلُ كل من يجيد الفرنسية، لديها أدوات تســـهل مهمتها وتجعلها قادرة على تجنب الخطإ. وعلى رأس هذه الأدوات قاموس اللغة الفرنسية الذى يقوم على ترتيب الحروف الأبجدية، بالإضافة إلى ترسانة من القواميس الخاصة بالقواعد وبالمترادفات وغير ذلك من الكتب التى يتعلم أى تلميذ فرنسى كيفية استخدامها فى المدرسة"(ص

٦٧ــ ٦٨).

والـــرد عـــلى هـــذا سهل غاية السهولة، فقد كان الكتّاب والعلماء والأدبـــاء والشـــعراء العرب طوال الخمسة عشر قرنا الماضية يستخدمون لغتهم استخداما سليما ويسيطرون عليها ويبدعون بها على أحسن وضع، فـــلماذا يعجز كثير منهم الآن عن أن يصنعوا صنيع أسلافهم؟ إنه الكسل العقـــلى والاكـــتفاء بأقل القليل. وهو عيب شامل، وليس خاصا بالكتابة فحسب، بل كل صاحب حرفة أو عمل يعانى من نفاد الصبر، وليس عنده مـــن طول البال ما يساعده على تجويد ما تصنع يداه. وهذا هو السبب فى أن عماراتـــنا أحيانًا ما تنهار الآن قبل أن يمر عليها سوى أشهر أو سنوات معدودات. وهو نفسه السبب فى أننا نشكو من إهمال الصنائعية والعمال، وهـــو أيضـــا الســـبب فى أن كـــثيرا من شوارعنا ممتلئة بالحُفَر والمطبّات والقاذورات والأصوات العالية المزعجة والبذاءات المقذعة التى تشمئز منها النفوس الكريمة، وأن البلاعات فيها إما أعلى من مستوى الأرض أو أوطأ منها، وكثيرا ما تكون مكشوفة بحيث يقع فيها الأطفال لتبتلعهم بأفواهها الفاغـــرة وتغيّبهم فى بطونها إلى الأبد، وأن كل شىء فى حياتنا تقريبا قبيح ومشـــوه، وأننا لا نستطيع أن نعتمد على أنفسنا فى توفير ما نحتاج إليه من

طعـــام أو ملابس مثلا، ناهيك عن تصنيع السيارات والحواسيب ومعدات القـــتال...إلخ. ثم إنـــك يا أ. شوباشي تعرف أن كثيرا جدا ممن تسميهم مـــثقفين وكتّابا كبارا ليس لديهم اطلاع كاف على اللغة أو التراث رغم أنهم كثيرا ما يتعرضون لهما بالكتابة والتقويم. أليست هذه محنة؟ ولسوف أعطيك هنا مثالا سريعا على ما أقول: فقد كتب جمال الغيطانى فى روايته المســـماة بـــ"الزينى بركات"، والتى يطنطن لها البعض بغير حق، أن اليهود قـــد طاردوا النبى محمدا بالحجارة من فوق أسوار الطائف حين التجأ إليها فى عهـــد الدعـــوة المكية، وأن امرأة من يهود هى التى أكلت (لاحِظْ: "أكلت" لا "لاكَتْ") كبد حمزة رضى الله عنه(دار المستقبل العربى/ ط ٣/ ١٩٨٥م/ ٢٢٥). وهذا، كما ترى، كلام مضحك بل تخريف عجيب إن وقـــع مـــن أى تلمـــيذ صغير كان جديرا أن يعاقَب على جهله بمثل هذه الوقـــائع الأساسية فى سيرة نبينا عليه السلام، فالتلاميذ والطلاب فى كل مـــراحل الدراســـة ونوعـــياتها، بما فيها مدرسة الصنائع التى تخرج منها الكاتـــب، يعـــرفون أن الذيـــن طاردوا النبى فى الطائف ورَمَوْه بالحجارة أوانذاك هم عبيدُها وصبيانُها وسفهاؤها من المشركين وليس اليهود، لأن الـــيهود لم يكونوا قد ظهروا فى حياة النبى عليه السلام بعد. كما أن التى

لاكـــت كبد حمزة، رضى الله عنه (لاكَتْ لا أكَلَتْ) هى هندٌ بنتُ عتبة زوجـــةُ أبى ســـفيان لا امـــرأةٌ من يهود، وكان ذلك عقب غزوة أُحُد . ومعـــروف أن ذلـــك إنمـــا وقع بعد الهجرة بالقرب من المدينة، وليس فى الطائف فى العهد المكى! والغيطانى أحد الكتاب الذين قد ترى فيهم طائفة مـــن نقـــاد آخر زمن أديبا ذا شأن، فضلا عن أنه كثير الحديث عن ولعه بالـــتاريخ الإســـلامى، مما يجعلنى أتساءل: ترى ماذا كان يمكن أن يكون عـــلمه بهـــذا التاريخ لو لم يكن وَلِعًا به إلى هذا المدى؟ كما أن فى لغته ضعفا وركاكة استفزا فاروق عبد القادر فأصلاه فى الكتاب الذى صدر له فى سلســـلة "كـــتاب الهلال" منذ شهور نارا حامية. ولو كان محمد مفيد الشوباشـــى حيًّا لأسمعه هو وأمثاله من الكتّاب ما يؤلمهم جزاءً وِفاقًا على هذا الضعف المزرى فى لغتهم القومية! والمصيبة أن المؤلف لم يتنبه ولا نبهه أحـــد ممن حوله لهذا الجهل على مدى الطبعات الثلاث التى طُبِعَها الكتاب فيصححه!

وبالمناسبة لماذا كان الشوباشى والمنفلوطى والعقاد والرافعى وإبراهيم رمـــزى والمازنى وأمين الريحانى ومطران ونعيمة وجبران وكرم ملحم كرم ومَلَـــك حفـــنى ناصف ومىّ زيادة والزيات والصيرفى والسحرتى وعنان

وهيكل ومحمد لطفى جمعة وفخرى أبو السعود وشكيب أرسلان وكرد علي وشفيق جبرى ونزار قبانى وسعد الله ونوس وغادة السمان وعبد القدوس الأنصارى وأحمد السباعى وخليل سكاكينى وابنته وداد وإبراهيم طوقان وأخته فدوى وهارون هاشم رشيد ومحمد عزة دَرْوَزَة ونازك الملائكة والجواهرى والسيّاب وعبد الكريم غلاب ومحمود المسعدى وحسن حسنى عبد الوهاب ومحمود شلتوت والسحار وباكثير وأمين يوسف غراب وزكى نجيب محمود وزكريا إبراهيم ومحمد الغزالى وخالد محمد خالد وعبد الرحمن الشرقاوى مثلا بهذه القوة والمتانة فى الأسلوب، ولم يتخرج أىٌّ منهم من أى من أقسام اللغة العربية بالجامعة، بل إن عددا منهم لم يتلقَّوْا تعليما جامعيا أصلا؟ حتى سلامة موسى، الذى كان كثير العيب على اللسان العربى ويرميه بالبداوة ويعلن كراهيته له لأنه اللسان الذى نزل به القرآن، يخلو أسلوبه من الأخطاء التى تبرقش كتابات أدبائنا الذين تسللوا إلى ميدان الأدب والفكر فى غفلة من الزمن! ثم لماذا هذا الضعف الشائن فى كثير من كتّاب هذا الجيل بالذات؟ أتكون اللغة العربية قد انقلبت بين عشية وضحاها من لغة يمكن إتقانها لمن يريد ويبذل فيها ما تحتاجه من جهد واهتمام إلى لغة عصيّةٍ شَموس؟ ولكن هل هذا مما تسمح

بـــه طبيعة الأشياء؟ إن المشكلة هي أننا أصبحنا فاقدى الصبر، على طريقة العـــوامّ الذين ما إن تبدأ فى شرح ما تريده لهم حتى يفاجئوك بقولهم دون أدنى حـــياء: هات من الآخر! وعبثا تحاول أن تعرف ما الذى يستعجلهم كل هذا الاستعجال فلا تجد إلا نفاد الصبر وقلة الأدب! فحياتهم، والحمد لله، فارغة من أى شىء مهم، وكل ما هنالك أنهم يفتقرون إلى ذلك الصبر الـــذى تحـــدث عنه الشيخ محمد عبده فى تفسيره لسورة "العصر" فأفاض وأمـــتع، وهـــو الصبر الإيجابى الذى بدونه لا تقوم حضارة ولا يتم تقدم: الصـــبر عـــلى مشـــقات العمـــل والإنتاج والإبداع والإتقان والتخطيط والاهتمام بالتفاصيل والالتزام بالنظام الدقيق والحرص على المراجعة والعمل على إصلاح الخطإ أوّلاً بأوّل...وما إلى هذا.

إن الـــناس الآن تبدو وكأن عفريتا قد ركبها، وكل ما يهمها هو أن تـــأخذ فلوســـا، أما أن تقدِّم لك لقاء هذه الفلوس الخدمة التى تريد على الوجـــه الذى يرضى الله ورسوله فكلا وألف كلا! وبالمناسبة فكاتب هذه الســـطور، الذى هو أنا، رغم تخصصى فى الأدب العربى، دائما ما أراجع المعاجم وكتب النحو والصرف حتى فيما أنا متأكد منه، وذلك كى يجىء أســـلوبى على أحسن ما أستطيع. ولست أعرف ذلك الاطمئنان الكاذب

الـــذى يأخذ كثيرا من الكتّاب فلا يراجعـــــون شيئا مما يكتبـــون البـــتة. ثم إنى أجد فى هذه المراجعات متعة عقلية وفنية لا تقدر بثمن، كما أنها توســع أفق معـــارفى وتكسبنى الثقـــة بنفسى. وأنت نفسك يـــا أ. شوباشى قد قلتها: فالسكرتيرة الفرنسية تتدرع لمهنتها بعدد من معاجم اللغـــة والإملاء وما إلى هذا مما يعصم ما تكتبه من كثير من الأخطاء التى يقـــع فيها أمثالها عندنا ممن لا يهتممن بأن يكون فى حوزتهن قاموسٌ فردٌ يوحّد الله لأنهن لا يفكرن أصلا فى تثقيف عقولهن ولا التأنق فى كتاباتهن، ولا شـــغلةَ طـــول النهار لهن إلا الكلام عن تقميع البامية وتقلية الملوخية والفســـتان التى اشترته فلانة والطلاق الذى وقع على رأس علانة...وهَلُمَّ جَـــرًّا. ولا أحسب الرجال يختلفون عن النساء كثيرا فى هذا السبيل! إنه الفرق بين مجتمع متحضر مثقف ومجتمع لا تهتم الغالبية الساحقة من أفراده إلا بالطعـــام والشراب والتسالى الخفيفة كمشاهدة المرناء وحل الكلمات المـــتقاطعة والتآمر على الجيران ومكايدتهم ونحوه، حتى إن كثيرا من دور النشر عندنا لم تعد تطبع من الكتب التى تصدرها أكثر من خمسمائة نسخة للكـــتاب تـــباع فى عدة أعوام! يا أ. شوباشى، أنت تنكأ الجراح، فبالله عليك لا تتهم اللغة العربية.

إننا، فى هذه الأيام النحسات، شعوب تعيش خارج خريطة التاريخ، شـــعوب لا قـــيمة لهـــا حضارية، شعوب تستهلك ولا تبدع! إن العرب والمســـلمين، يـــوم أن كانوا يتمتعون حقا بالثقة بأنفسهم والإيمان بربهم والقدرة على التضحية والتحمس للعمل والإنتاج والسعي فى أعقاب العلم والـــلهاث خلف الثقافة الرفيعة، قد فتحوا البلاد وبسطوا سلطانهم ولغتهم وديـــنهم على الدنيا فى بضعة عقود قليلة من السنين رغم أنهم لم يكونوا يملكـــون من الإمكانات شيئا يذكر. وكانوا فى ذلك الوقت أيضا يقبضون عـــلى زمام لغتهم أحسن ما يكون القبض على الزمام، أما الآن فانظر تَرَ مـــاذا أصبح حالهم. إنهم يصعبون على الكافر، وإسرائيل، التى تتكون من عصـــابات متنافرة من أرجاء الأرض المتباعدة، تسومهم الخسف والهوان دون أن يستطيعوا أن يقولوا لها: "بِمْ"، رغم أنها من الناحية العددية لا تبلغ خمس معشارهم! ويوم أن يعود لهم سابق عزهم ومجدهم فعندها لن نسمع مـــن يقول إن العربية صعبة أو إنها تحتاج إلى حذف هذا الجزء أو ذاك من قواعدهـــا وتقريبها إلى العامية. إنها منظومة واحدة، والحال هنا هى نفسها هـــناك. ولهـــذا تـــرانا ضـــعفاء حتى فى ميدان الرياضة واللعب مع توفر الإمكانـــات اللازمـــة للـــتفوق فى هذا المجال. لكنه، مرةً أخرى، الكسل

واللامبالاة وغياب الروح وضعف الشعور بالكرامة القومية والظن بأن الفَهْلَوَة والبَكَش يمكن أن يوصلانا إلى ما نريد، مع أنه قد ثبت لنا مرات ومرات ومرات أن هذا الأسلوب لا يؤدى إلى غير الكوارث، لكننا لا نتعظ أبدا! ترى أأمضى فى هذا الموّال أم الأفضل أن أكفأ على الخبر ماجورا وأسكت؟ أما أنا فأوثر أن أسكت! وعلى الناحية الأخرى أستطيع أن أعدد لك أمثلة على سهولة إتقان اللغة الفصحى لمن يريد بحقٍّ أن يتقنها: فقد كان معنا فى المدينة الجامعية فى النصف الثانى من ستينات القرن الماضى طلاب من الصين والاتحاد السوفييتى وبعض البلدان الأفريقية والآسيوية يحسنون الحديث والكتابة بها مع أنهم إنما تعلموها فى بلادهم لا فى بلد عربى. كما أذكر فتاتين صغيرتين لأب مصرى وأم بريطانية التقينا بهما فى أوكسفورد فى أواخر العقد الثامن من القرن الفائت، وكانتا تحسنان العربية الفصحى إلى حد كبير حديثًا وكتابةً رغم أنهما لم تكونا قد تخطّتا الثانية عشرة من عمرهما. وعندما كنت فى جامبيا فى غرب أفريقيا فى منتصف الثمانينات من القرن المنصرم تعرفتُ إلى شاب أفريقى من سيراليون رأيت لديه اهتماما بأن يكمل دراسته فى اللغة العربية، وكان يبيع فى السوق بعض الأشياء الصغيرة التى تهم المرأة بغية أن يوفر شيئا من المال

يستعين به على هدفه. والشاهد فى الحكاية أننى أردت أن أستوثق من مدى معرفته بلغة العرب التى درسها كلغة أجنبية ولم يَعْدُ فى تعليمه المدرسىّ الثانية الثانوية، فعقدت له امتحانا فى النصوص والقواعد فوجدته قد أحرز درجة عالية رغم انقطاعه عن الدراسة منذ وقت ليس بالقصير. وكان يكلمنى باللغة الفصحى بسهولة كبيرة. وقد دفعنى هذا إلى تشجيعه واستحثاثه على مواصلة تعليمه إلى النهاية، بل إننى حين عدت وقتها إلى مصر أرسلت إليه طَرْدَيْن (أو بلغة البريد فى بعض دول الخليج: بَعِيثَتَيْن) من الكتب. كذلك كانت مَىّ زيادة لا تستطيع فى البداية أن تكتب بالفصحى كما ينبغى، بل تستخدم الفرنسية، ثم بدا لها أن تتقن لغة القرآن، وصحّ منها العزم على ذلك، وساعدها فى هذا السبيل أحمد لطفى السيد. وكان من بين ما نبهها إليه وأخذها فيه بالحزم وجوب قراءة القرآن المجيد والتضلع من أسلوبه وموسيقاه...حتى أصبحت فى نهاية الأمر واحدة من أكابر كتاب العربية وأصحاب الأساليب فيها. وبالمناسبة هناك من بين المستشرقين من يتقن لغة القرآن أفضل من كثير من كتاب هذه الأيام عندنا! كما أن مئات العلماء الهنود والباكستانيين والإيرانيين يكتبون باللغة العربية ويتكلمون بها أفضل من كثير من أبناء العربية!

أمـــا عـــن التلاميذ والطلاب العرب وضعفهم فى لغتهم الأم فيقول كاتبـــنا: "ومن منطلق معرفتى بمستوى التعليم فى فرنسا وغيرها من الدول الغربية أستطيع أن أجزم بأن المستوى اللغوى لخريجى الجامعات المصرية من غير المتخصصين يوازى مستوى تلميذ فى بداية المرحلة الإعدادية هناك فى لغته الأم. فهل يعكس هذا نبوغ تلاميذ العالم الغربى وتخلف طلاب العلم عـــندنا؟ بالتأكيد لا، فإن المستوى الذهنى متقارب بين الاثنين. إنما المعضلة تكمـــن فى اللغة العربية التى ترقى تعقيداها إلى مستوى اللوغاريتمات على عقـــول غـــير المتخصصين... فعلينا بعيدا عن النفاق أن نعترف بأن طلبة المدارس يكرهون حصة اللغة العربية وينعون همها أكثر من أى مادة تعليمية أخـــرى. فإلى متى نجعل أطفالنا وشبابنا يتجرعون عذاب القواعد المعقدة الـــتى عفـــا عليها الزمن و لم تعد تواكب العصر؟"(ص ١٢). هذا ما قاله الكاتـــب، وأنا أزيد عليه أن الأغلبية الساحقة من الطلاب المتخصصين فى اللغة العربية وآداها لا تعرف شيئا ذا قيمة عن أدب أمتهم أو لغتها، بل لا يحسنون الكتابة دون أخطاء إملائية فادحة، بل لا يعرف كثير منهم كيف يضـــبط النص بالفتح والكسر والضم...إلخ مما دفع زميلا لنا ظريفا إلى القـــول بأن كل واحد من هؤلاء الطلاب، هروبًا من همّ التعلم والتفكير،

يحمل مخلاة فى جيبه مملوءة بما شئت من الفتحات والكسرات والضمّات والسكنات والشدّات والتنوينات، ثم إذا ما طولبوا بتشكيل نص من النصوص أخرجوا المخلاة ومدوا أيديهم فيها وكبشوا حفنة من محتوياتها ثم رشّوها كيفما اتفق على كلمات النص فتقع حركات التشكيل هنا وهناك اعتباطا، وأن هذا هو السبب فى أن بعضهم قد يضع مثلا على أول حرف فى الكلمة سكونا ثم يُتْبِعه على الحرف الثانى بشَدّة...وهكذا مما لا يُعْقَل لأنه مستحيل. لكن كيف يكون مستحيلا، ونحن قوم بارعون فى صنع المعجزات مما لا قِبَل به للغربيين سادة العالم الآن فى ميادين العلم والثقافة والإبداع؟ ألسنا نحن الذين دهنّا الهواء دُوكُو؟ ألسنا نحن الذين عبّأنا الشمس فى زجاجات؟ ألسنا نحن الذين صَرَرْنا الفيل فى المنديل؟ هل يستطيع أحد أن يدلنى على قوم آخرين حققوا هذه الإنجازات أو نصفها أو ثلثها أوعشرها أو حتى واحدا على الألف أو على المليون منها؟ إن كل ما فعله الغربيون مثلا أنهم اخترعوا القطارات والسيارات والغواصات والقنابل والصواريخ وسفن الفضاء والحاسوب والمِشْباك (النّتّ) وما إلى هذا مما لا إعجاز فيه لأنه يخضع للقوانين التى يسير عليها الكون، أما نحن فنأتى بالمستحيل الذى لا يستطيعه أحد سوانا من البشر! إلا أننى ينبغى أن

أضيف أن الأغلبية الساحقة أيضا من الطلاب فى أى تخصص لا يفترقون عن طلاب أقسام اللغة العربية فى الضعف العلمى. فالشكوى عامة بين الأساتذة من أن الطلبة لا يهتمون بما يتلقّوْن من علوم ودروس، وأن كل همهم هو النجاح فى الامتحان والحصول على الشهادة من أى طريق، ولهذا تراهم لا يبذلون الجهد المطلوب ولا يقرأون شيئا إلا فى الشاذ النادر. وكنت اليوم فى زيارة لصديق مريض فى المستشفى، ومررت فى طريق العودة ببائع للكتب القديمة أعرفه فتوقفت عنده لأشترى بعض ما أجدنى بحاجة إليه منها، وأخذت أسأله كعادتى عن مدى إقبال طلاب الجامعة التى يقع جَوْسَقه على الرصيف المواجه لها على شراء الكتب والقراءة، فجاءت إجابته على ما توقعت من أنهم لا يكادون يقرأون شيئا، اللهم إلا إذا كلفهم الدكتور ببحث، فإنهم عندئذ يأتون فيسألونه عن الكتب التى يمكن أن يجدوا فيها ما ينقلونه فى هذا البحث. أقول: "ينقلونه"، لأن البحث عندهم لا يعنى أكثر من نقل بضع صفحات من هذا الكتاب أوذاك دون فهم: نَقْلها نقلا تكثر فيه الأخطاء الإملائية، ودون أية إضافة شخصية!

فالعيب يقع أساسا فى هذه المنطقة، منطقة اللامبالاة بالقيم الثقافية

والعقليـة، والـترهُّل الذهـنى والذوقى. ودعنا من حكاية ارتفاع سعر الكـتاب، فالعـرب ليسوا كلهم فقراء، وهم جميعا، سواء منهم الفقراء والأغنياء، حريصون على اقتناء أدوات الحضارة الحديثة مهما كانت غالية الثمن. ثم هاهى ذى إصدارات "مكتبة الأسرة" مثلا فى مصر تباع بأسعار زهيدة، فهل تغير المصريون وأضحَوْا أكثر حُبًّا للقراءة؟ أستطيع أن أجيب بمـلء يقـين على ذلك السؤال بالنفى، وإلا فأين موضع المكتبة فى البيت المصرى؟ إن المكتبة عندنا، إن وُجِدَتْ، ليست فى معظم الأحوال أكثر من مكـان توضع فيه التحف وجهاز المِرْناء وبعض الدباديب، وكان الله يحب المحسنين! ترى كيف يمكن أن يسيطر على لغته القومية من لا يقرأ شيئا فى هـذه اللغـة ولا يستطيع أن يتذوق روائعها بل لا يبالى بأن يتذوق هذه الـروائع، وإذا حدثـتَه عنها كنتَ كمن يتحدث عن إحدى غرائب واق الواق؟

وفضـلا عن ذلك فالمنهج الذى تُعَلَّم به قواعد اللغة لا يؤدى الغرض المطلوب، إذ الملاحَظ أن أساتذة النحو غالبا ما يحصرون أنفسهم فى دائرة المعلومـات الـنظرية، فـترى الطلاب لهذا يحفظون القواعد حفظا، وقد يسـتطيع بعضـهم (بعضـهم فقط) أن يُعْرِبوا ما يُطْلَب إليهم إعرابه من

كلمات أو جمل، لكنهم لا يقدرون مع هذا أن يقرأوا أو يكتبوا على نحوٍ صحيح! كذلك فدروس النحو والصرف محشوة بالتفصيلات التى قلما تفيد عارفها فى ميدان الواقع. وأنا أزعم أن مجموعة القواعد التى يحتاج إليها الشخص العادى لكى يكتب ويقرأ على نحو سليم ليست بالكثيرة ولا المرهقة. والمهم هو الاهتمام بالدروس التطبيقية التى يردد فيها الأستاذ الأمثلة الأساسية فى كل درس، ويظل الطلاب يكررونها بعد ذلك فى المدرسة أو الجامعة والبيت قراءة وكتابة حتى تنطبع فى آذانهم وأيديهم وأذهانهم وتنطلق بها ألسنتهم وأقلامهم كأنها سليقة فيهم. والمهم أيضا أن يقتنع الطالب بأن اللغة قيمة قومية ودينية وثقافية واجتماعية تستحق أن يبذل فيها الجهد والتعب، أما قبل ذلك فكلا وألف كلا. ولقد كنت أفعل هذا منذ صباى أنا وزميل لى أصبح الآن أستاذا فى الجامعة مثلى حتى أتقنّا لغتنا مبكرا دون أن نجد حولنا من يأخذ بأيدينا، بَيْدَ أن تحمّسنا لهذه اللغة وأدبها وطموحَنا من البداية إلى أن نكون من الكتاب والأدباء كان نعم المعين! وقد كان هذا هو نفسه الأسلوب الذى جريت عليه مع الطلاب حين عُهِد إلىّ، فى أواسط السبعينات من القرن البائد، أن أدرّس لهم، وأنا لا أزال مدرسا مساعدا، مادة التدريبات النحوية رغم عدم تخصصى فى

الـــنحو أصـــلا، فكان اهتمامى كله تقريبًا منصبًا على التطبيقات وعلى تمريـــنهم على القراءة والكتابة الصحيحة. وقد أثمر هذا الأسلوب مع عدد مـــنهم أصبحوا بدورهم فيما بعد دكاترة فى الجامعة، على عكس الباقين الذين لم يكونوا مهتمين بالأمر، فإنهم لم يستفيدوا كثيرا كما لا أحتاج أن أقـــول. أما الآن فإن الغالبية الرهيبة من الطلاب لا تريد أن تبذل أى جهد حـــتى إنهـــم لا يفكرون مثلا فى الرجوع إلى المعجم، بل لا يعرفون كيف يســـتعملونه إذا حدثت المعجزة وبدا لهم أن يستفسروا عن معنى كلمة من الكـــلمات. فـــإذا نبهـــناهم إلى أنهم ينبغى أن يرجعوا بأنفسهم إلى هذا القـــاموس أو ذاك أخـــذوا ينظرون إلينا فى استغراب بل فى بلاهة وكأننا نحدثهم عن عجيبة من عجائب الحياة! والغريب أن هؤلاء الطلاب أنفسهم إذا ما ألقت الأقدار بواحد مثلى فى طريقهم بعد تخرجهم واشتغالهم ببعض الحـــرف أو الصنائع التى يلجأون إليها فى هذا العصر الممتلئ بالبطالة فإنهم يستطيعون بمنتهى السهولة خداعى أنا الذى أظن نفسى ذكيا، ويلعبون بى وبأســـلافى بعـــبقرية شيطانية عجيبة كما يلعب الحواة بالبيضة والحجر! والســـؤال هـــو: كيف قد صاروا أذكياء على هذا "النحو" يا ترى، وهم الذين لم يكونوا يفهمون شيئا فى "النحو"؟ إنها كراهية العلم، والبراعة مع

ذلـــك فى الفهلـــوة وشـــغل الثلاث ورقات! إنهم أبناء مجتمعهم وبيئتهم! وللتفكهة أذكر أن أحد أساتذة النحو المشهورين كان قد ألف مذكرة فى تلـــك المادة سماها: " تحفة الطلاب، فى النحو والإعراب"، فكنت، لشدة ضـــيقى بمســـتوى الطلاب المتدنى والمخجل فى لغتهم، أقترح عليه أن يغير تسميتها إلى "ضَرْب القبقاب، فى رؤوس الطلاب"، فيضحك حتى يستلقى على قفاه!

وهـــنا أود أن أوضح شيئا، ألا وهو أن الخطأ سيظل ملازما لكل من يـــتحدث اللغـــة الفصـــحى رغم ذلك، لا لعيب فى هذه اللغة بل بسبب الطبـــيعة البشرية التى لا تنفك عن الخطإ مهما حاولت التحرز منه. وقديما قـــال رســـولنا الأعظم: " كُلّ بنى آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون". والـــتوبة مـــن الخطإ فى هذا المجال تكون ببذل مزيد من الجهد فى مراجعة القواعـــد وفى تطبـــيقها فى الكلام والكتابة. وهذا الكلام لا يقتصر على فصحانا وحدها بل على كل فصحى، ومنها فصحى الإنجليزية والفرنسية والألمانية التى أخشى أن يكون حديث الأستاذ الشوباشى عن تفوق أهلها فى اســـتعمالها قـــد أوحى للقارئ أنهم لا يخطئون فيها كما نخطئ نحن فى فصـــحى لغتنا الأم! كذلك أود أن ألفت النظر إلى أن الخطأ فى استخدام

اللغــة لا يقتصـــر على المستوى الفصيح فحسب، بل ينسحب أيضا على المستويات العامية. كل ما فى الأمر أننا، بسبب عدم وعينا بقواعد العامية، ولأن الأحاديـــث اليومـــية الـــتى نستخدم فيها اللهجات العامية ليست مناســـبات رسمية، لا نلتفت للخطإ فيها، وبخاصة أننا لا نبتغى فيها المتعة والأناقـــة كما فى الفصحى، بل نكتفى منها عادةً بمجرد التفهيم وتوصيل الفكـــرة التى نريد الحديث عنها بأى سبيل. بالضبط مثلما لا نلتفت لخطإ مـــن تخطئ فى المشى، بينما نتنبه بحدة لمن تخطئ فى حركات الرقص مثلا، ومثلما لا نلتفت لإهمال المرأة فى لبس مباذل البيت، على حين تكون أعيننا مُفَنْجَلَة لأى تقصير فى طريقة ارتدائها لملابس السهرة... إلخ. إننا فى الواقع لا نكـــف عـــن البأبأة والتأتأة والفأفأة والتلعثم والتردد وقطع الجملة قبل تمامهـــا واستخدام الكلمات فى غير موضعها واللجوء إلى كثير من جمل الحشو لملء الفراغات فى أحاديثنا العامية اليومية، وكثيرا ما نخطئ أيضا فى نطـــق هذا اللفظ أو ذاك، وتركيب هذه الجملة أو تلك، بيد أننا لا نتنبه لذلـــك ولا نلقـــى إليه بالا لأن اللهجة العامية لا علاقة لها بالرسميات ولا يُقْصَـــد بهـــا عـــادة إلى الإمتـــاع، وليست لها فى أذهاننا قواعد واضحة كالفصحى نضعها نُصْبَ أعيننا لنتحاكم إليها. ويوم تصبح رسميا، لا قدر

الله، هـــى لغة الكتابة والمحاضرات والندوات والصحافة والإذاعة وندرس قواعدهـــا فى المـــدارس والجامعات، فعندئذ سوف نتنبه لما نقترفه فيها من أخطـــاء! وكـــل هذا رغم أننا لا نكفّ لحظة عن استعمالها، على عكس الفصـــحى التى لا تستخدم إلا فى التأليف والمحاضرات والندوات والخطب ومـــا أشبه! وبالمناسبة فقواعد العامية كثيرة ومعقدة على عكس ما نظن. أقـــول هذا من واقع قراءتى لقواعد بعض اللهجات العربية، ومنها لهجتنا المصـــرية التى أذكر أنى راجعت آجُرّوميّتها، أيام أن كنت أدرس للحصول عـــلى درجة الدكتوريّة فى بلاد جون بول، فى كتاب وضعه أحد الضباط الإنجلـــيز عـــلى عهـــد الاحـــتلال البريطانى لمصر يقع فى عدة مئات من الصفحات الممتلئة بكثير من التفصيلات والاستثناءات التى ليس لها ضابط، مما يسبب للذهن الدوار المؤلم.

وحجـــة كاتبـــنا فى المـــناداة بالتغيير الذى يدعو إليه هى أن العربية الفصحى لم تتطور قواعدها منذ خمسة عشر قرنا كما يقول بحيث لم تعد ملائمـــة للتعـــبير عمـــا نريد فى عصرنا هذا(ص ١٣، ٥٥، ٧١)، بل إنه لـــيدّعِى أن العرب قد هجروا فصحاهم تماما(ص ١٣٥). وإنا لنسأله: متى وكـــيف عجزت اللغة الفصحى عندنا عن مجاراة العصر أو التعبير عن أية

فكرة أو عاطفة نريد التعبير عنها؟ هاهى ذى الكتب تصدر فى بلاد العرب فى كـل التخصصات مكتوبة بالفصحى، و لم نسمع أن أحدا قد شكا من أنه عاجز عن التعبير من خلالها عما يريد لا فى الفلسفة ولا فى الطب ولا فى الجيولوجـيا ولا فى الكيمـياء ولا فى الطبـيعة ولا فى القانون ولا فى الاقتصـاد ولا فى السياسة ولا...ولا...رغم أننا لسنا فاعلين حضاريا فى هذه الطور المخزى من تاريخنا بل مجرد متلقين فى معظم الأحوال. فما بالنا لو أننا كنا من المبدعين مثل أسلافنا فى أيام عز الحضارة العربية حين كان العـالَم يتعلم على أيديهم ويفتح آذانه وأعينه وقلبه لما يقولون؟ ثم هاهو ذا كاتبنا نفسه قد ألف كتابه بهذه الفصحى التى ينعى عليها عجزها وتخلفها! أليس هذا هو التناقض بعينه؟ ومن قبل ردد سلامة موسى هذه الفرية التى افتراها جماعة من المبشرين والمستشرقين ممن يسوؤهم أن يَرَوْا القرآن أمام أعيـنهم فهم يعملون بكل ما عندهم من كيد وخبث على محوه عن طريق تدمير اللغة التى نزل بها، وهى اللغة الفصحى. وكان سلامة موسى، ومن قـبله بعـض شـياطين الاستشراق والتبشير، يَدْعُون بدعوتهم الإبليسية مسـتخدمين هذه الفصحى التى يزعمون بشأنها المزاعم والأباطيل! والذى قـرأ سلامة موسى يعرف أنه كثير الكتابة فى موضوعات العلوم الطبيعية

والنفسية والفلسفية الحديثة، فبأية لغة يا ترى كتب ما كتب فى هذه الموضوعات؟ لقد كتبها بالفصحى! ومع هذا كان يردد دائما فى إملال مزعج كاذب أن هذه اللغة هى لغة قديمة لا تصلح أن تكون وعاء للعلوم العصرية. فأنّى لنا أن نصدّق هذا السخف الفجّ؟ ويستطيع القارئ أن يجد كلامه ذاك التافه فى كتابه "البلاغة العصرية واللغة العربية"(المطبعة العصرية/ ١٩٥٣م/ ٤٩ـ ٥١). إن مزاعم هذا الرجل ليس لها من معنى إلا أن اللغة الفصحى قد وردت إلينا الآن لتوّها من الماضى البعيد، وعلينا أن نستعين بها فى التعبير عن علوم العصر وأفكاره وهى لا تزال بعَبَلها، أو كما كان قدماؤنا يقولون: لا تزال بعُجَرها وبُجَرها! وكأنها ليست ذات تاريخ طويل مرّت فيه بتطورات هائلة جعلتها فى كل مرحلة من مراحله قادرة تمام المقدرة على التعبير عن كل ما يريد منها أصحابها لم تخذلهم يوما! ومما قاله ذلك الرجل أيضا فى معرض الزراية على الفصحى والتنفير والتحقير منها بصريح القول ودون أية تورية أو تجميل أن اللغة عند زكى مبارك وابن عربشاه والحكومة المصرية "ليست لغة الديمقراطية والأتومبيل والتلفزيون، بل هى لغة القرآن وتقاليد العرب"(المرجع السابق/ ٥٤). وكان كلامه هذا تعليقا على قول زكى مبارك (والعهدة عليه) إن المرأة لا

تبستحق إلا الضـرب بالحذاء، وعلى استنكار المؤرخ المسلم ابن عربشاه لخلوّ مراسلات جنكيز خان من عبارات التبجيل والتفخيم التى كان يجرى عليها الإنشاء الديوانى فى عصور التخلف الأدبى، وعلى ما يقوله هو نفسه من أن الحكومة المصرية عندما أنشأت كلية دار العلوم لم تسمح للنصارى بالالـتحاق بهـا. فانظر كيف جاءت إشارته إلى القرآن فى هذا السياق المسـىء الـذى يـراد منه اتهام كتاب الله العظيم بأنه يناقض الديمقراطية والعلـوم العصرية والتسامح الدينى واحترام المرأة! وانظر كذلك إلى هذه اللدغة السامة فى دعواه الكاذبة بأن العربية التى وصلتنا عن آبائنا وجدودنا غير صالحة للتعامل مع المعارف العلمية الحديثة، إذ يقول: "لم يكن المجتمع العـربى القديم يعيش على المعارف والمنطق إلا فى أقله، وكان يعيش على العقائد والغيبيات فى أكثره، ولذلك يشقّ علينا فى مجتمعنا أن نؤدى المعانى لـلمعارف المادية لأن لغتنا حافلة بكلمات الغيبيات والعقائد دون كلمات العلوم الجديدة"(السابق/ ٥١). ووجه التدليس والكذب فى هذا الكلام أنه يضع العقائد والغيبيات (الإسلامية طبعا، وليس غيرها) فى مواجهة المعارف والمـنطق. فهـذه واحدة، ولست محتاجا إلى أن أنصّ للقارئ على هدفه الخبيـث مـن وراء ذلك. والثانية أنه يتجاهل بكلامه هذا الميراثَ اللغوىَّ

العظـــيمَ الذى ورثناه عن عصور الازدهار العلمى من تاريخنا الحضارى فى مجـــالات الطب والحساب والكيمياء والطبيعة والفلك والهندسة والفلسفة والجغرافيا والمنطق...إلخ. وقد نقل كاتبنا(ص ٤٠) قول سلامة موسى عن العربـــية إنـــنا "قد ورثناها من بدو الجاهلية فى عصر الناقة، ويراد لنا أن نـــتعامل بها فى عصر الطائرة"، وأبدى موافقته على هذا الحكم، وإن كان قـــد احـــترز بأنـــه، على عكس سلامة موسى، لا يريد استبدال العامية بالفصـــحى(ص ٤٠ـــ ٤١). ولا أدرى أىّ خَبَلٍ قد أصاب عقل موسى، الـــذى كان كثير الطنطنة بالعلم ولا يكف عن التنفج بأنه كاتبٌ عصرىٌّ بـــل مســـتقبلىّ، فكل اللغات ترجع إلى أصول قديمة لا علاقة لها بالعلوم الحديثة، لكنها مع ذلك تتطور لتواجه المواقف الجديدة التى لم يكن لها بها عهد من قبل. أم ترى اللغات الأوربية التى يمجدها فى الفاضية والملآنة قد نزلـــت مـــن السماء دفعة واحدة كاملة لا ينقصها شىء إلى يوم يُبْعَثون؟ أرجو أن يرى القارئ الفاضل التواء المنطق والذهن عند من يحاربون لغتنا، وغير لغتنا أيضا!

ولبنـــت الشـــاطئ، رحمها الله، كتاب شديد الأهمية عن تطور اللغة العربـــية عنوانه "لغتنا والحياة" تتبعت فيه المراحل التى مرت بها هذه اللغة

العبقرية منذ العصر الجاهلى إلى العصر الحديث، وكيف انفتحت لها القلوب والعقول مع انتشار الإسلام، وكيف كانت تواجه الظروف والأوضاع والمشاكل التى تقابلها وتنتصر عليها، وكيف أَثْرَتْ واتسعت ألفاظًا وتراكيبَ وصُوَرًا حتى صارت على ما هى عليه اليوم ولم تبق على نفس الوضع التى كانت عليه فى الجاهلية أو فى صدر الإسلام، بل وَسِعَتْ كلَّ أنواع الفنون والعلوم. وينبغى على القارئ أن يرجع إلى هذا الكتاب كى يكون على ذكر مما حدث للغة الضاد من تطورات هائلة ومتنوعة، ويتضح له تدليس من يريدون أن يبيعوا له الترام فى عز النهار متصورين فى أنفسهم الذكاء واللَّوْذَعِيّة، وفيه هو البلاهةَ والغباء. ترى هل يمكن لأى بكّاش أن يدعى أنَ اللغة التى نكتب بها اليوم هى نفسها اللغة التى كان يستعملها امرؤ القيس كما يقال عادةً، أو حتى لغةُ ابن المقفَّع أو الجاحظ أو القاضى الفاضل، أو حتى لغة الرافعى أو الزيات مثلا؟ إن العربية لم تكف قطّ عن التطور، ومن يَقُلْ بغير هذا فهو إما واهم لا يدرك ما يقع حوله وإما جاهل وإما غشاش! ترى أيمكن أن يمر يوم بل ساعة بل دقيقة على أى كائن حى دون أن تعتريه التغيرات من كل نوع؟ كلا بالطبع. وهو نفسه الجواب فى حالة اللغة.

وردًّا على دعوى من يقول إن اللغة العربية لم تتطور نشير بسرعة إلى توارى آلاف الكلمات عن الأنظار ونشوء آلاف أخرى لم تكن موجودة فيها من قبل، واختفاء ألوان من التراكيب والتعابير والصور كانت لها شنّة ورنّـــة يوما ثم تغيرت الأذواق فاختفت أو كادت. مثلا أين يا ترى ذهب العـــدد الهائل من الألفاظ الرعوية التى كان العرب الجاهليون يستعملونها؟ لقد اندثر كثير منها، وتحول عدد كبير آخر إلى الاستعمال المجازى، ومال الباقى على أسلات أقلامنا وعلى ألسنتنا نحن أهل الحضر إلى الاحتجاب، لأنـــنا لم نعـــد نعيش فى مجتمع رعوى. وبالمثل أين ذهبت الصيغ القَسَمِيّة التالية: "وَايْمُ الله، أجدَّك، عَمْرُك الله، تَرَبٌ الكعبة"، أو تركيبات مثل: "إنْ كاد فلان لَيَفْعَل كذا، وكَرِبَ أن يفعله، واخْلَوْلَقَ أن يصنع كيت، وجعل يصـــنعه، وجـــاء القوم أكْتَعين أبْصَعين، وقام الطلاب ليس/ أو لا يكون زيدا، وارتفع السحاب متى لُـــجَج البحر، وأَجْمِلْ بفلانة، وإنْ كُلٌّ مهاجم لمّـــا عليه مدافع"، فضلا عن كثير من صور التنازع والاشتغال المعروفة لدارســـى النحو العربى المفصل، وعدد غير قليل من صيغ الأسماء والأفعال مـــثل: "فِعْلَـــلّ وفُعَلّـــل وفَعَيْلَل وفَعْفَعيل وفَوْعال وفُعَلْعَل وفِعْلِياء وفَعْلَلَى وفِعَـــلاّل وفَعَلّلَى، وفَعْيَلَ وفَيْعَلَ وفَعْوَلَ وفَعْنَلَ وافْعَالَّ وافْعَنْلَلَ وافْعَنْلَى"؟

كمــا أننا بوجه عام قلما نستخدم الآن صيغ التصغير أو أسلوب الإغراء والـــتحذير. وبالمثل يندر أن يَصِف أحدنا المنادى العَلَم أو يعطف عليه اسما آخــر، أو يســتعمل من أدوات النداء "أىْ" أو "هَيَا" أو حتى الهمزة، أو يستخدم "بَلْهَ" بل نقول عادة: "فضلاً عن". كذلك فنحن نلزم فى الأعلام الحديــثة، والأجنبية منها بالذات، السكون فى كل الأحوال، ونكتفى فى عــبارة "لا حَــوْلَ ولا قــوَّةَ إلا بالله" مثلا بفتح اللام من "حول" والتاء المربوطة من"قوة" مهملين الإعرابات الباقية فلا نقول: "لا حولٌ ولا قوةٌ" أو "لا حــولاً ولا قوةً"، ولم نعد نستخدم من أخوات "ظَنَّ" الفعل "دَرَى (أحمــدُ أستاذَه عالمــًا كبيرًا)" المتعدّى إلى مفعولين، بالضبط مثلما لم نعد نســتعمل فى الحــال قولهم: "جاؤوا الجَمّاءَ الغفيرَ"...وهكذا. ومن ناحية أخرى فقد أخذ المجمع اللغوى بمصر بكثير من التسهيلات فلم يَرُدّ أى لفظ أو تركيــب أو عبارة مستجدّة لها وجه من الصحة، ودعا إلى التوسع فى القياس بدلا من العناد الحرون الذى يلجأ إليه بعض المتنطعين فى اعتراضهم عــلى اعتماد القياس فى بعض الاستعمالات الجديدة بشبهة أننا ينبغى أن نلــتزم بما ورد عن العرب فى هذه المادة أو تلك الصيغة أو ذلك التركيب ولا نقــيس على ما قالوه . وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فقد يكون من

المناسب أن أقول إنى قد أصبحت بدورى أكثر تسامحا ومرونة تجاه ما يسارع غيرى إلى تخطئته بناء على أنهم لم يقابلوا هذا الاستعمال من قبل. ورأيى فى هذا الموضوع أن من الصعب الجزم بأن التركيب الفلانى أو التعبير العلانى خطأٌ ما دام لا يصادم أصلا من أصول اللغة، إذ ثبت لى فى كثير من المواقف أن الاستعمال المَقُول بخطئه ليس فى الحقيقة كذلك، بل كل ما هناك أن المخطِّئ قد تسرع فحكم على ما ليس له به علم، وبخاصة أنه قد صار سهلا الآن أن يكون تحت أيدينا فى دقائق معدودة كل الشواهد الشعرية أو جُلّها وكثير جدا من شواهد كتابات الفحول القدماء فى الاستعمال الذى نكون بصدده بنقرات قليلة على فأرة الحاسوب، وذلك كله ببركة الأقراص المدمجة، وهو ما كان علماء العرب يُفنُون فيه الأيام والليالى، وربما الشهور والسنين، كى يضعوا أيديهم على بعضه.

وأما ما كان ينقص العربية من المعانى والمفاهيم والمصطلحات الجديدة مما كان موجودا فى غيرها من اللغات أو مما توصل إليه علماؤها أنفسهم فإنها كانت تستحدثه أوّلاً بأوّل بطُرُقها المختلفة كالاشتقاق والنحت والتعريب وإضفاء المعنى الجديد على لفظة قديمة... وبين يدىّ، وأنا أكتب

هــذا الكلام، كتاب د. عبد الصبور شاهين: "العربية لغة العلوم والتقنية"، الــذى يتــناول فــيه الجانــب اللغوى من التراث العلمى العربى وكيف اســتطاعت لغــة القرآن أن تستوعب العلوم المختلفة فى كل مرحلة من مــراحل تاريخهــا حتى العصر الحديث، إلى جانب قضايا الترجمة وصَوْغ المصطلحات العلمية التى تحتاجها اللغة كلما هلّ عليها علم أو فن جديد. وهــو ما يبين أن العربية لم تعجز يوما عن التعبير عن أى فكرة أو مفهوم علمى، على عكس ما يريد إيهامَنا به المتعجلون الذين لا صبر عندهم على التحقــيق والتمحــيص، أو المقلدون الحاطبون فى حبال أعداء هذه اللغة ودينها. كذلك للدكتور كارم السيد غنيم كتاب فى ذات الموضوع عنوانه "اللغة العربية والصحوة العلمية الحديثة" يحسن بالقارئ الرجوع إليه أيضا لأهميــته الشديدة فيما نحن بصدده. فكيف يقال بهذه البساطة إن نحو لغتنا وصــرفها لم يعــترهما أى تطور؟ لقد تطورا، لكنه التطور الذى لا يمس جوهــر اللغة وسماتها الفارقة، بل يحافظ على خطوطها العامة ويُبْقِى على شخصــيتها. أما ما يريده الكاتب من تطوير فما هو فى الحقيقة بتطوير بل تغــيير لملامــح اللغة وروحها، وهو كفيل ببتّ الصلة بيننا وبين اللغة التى عــرفها أسلافنا وآباؤنا طوال الخمسة عشر قرنا الماضية أو يزيد، وكذلك

الآداب والعلــوم التى كُتِبَتْ بها، وقبل هذا وذاك القرآن المجيد. لماذا؟ لأنه يــريد أن يلغى، وإلى الأبد، أبوابا من النحو والصرف لا غنى للغة ولا لنا عــنها، أما ما توارى من الاستعمالات القديمة مما تحدثتُ عنه آنفا فإنه لم يُلْغَ، بل مازال موجودا فى مستودع اللغة بحيث نستطيع أن نستخرجه متى وجدنا أننا بحاجة إليه. فهو يمثل إذن مخزونا إستراتيجيا ينفعنا وقت الضيق، عــلاوة على أن هناك تحت أيدينا بدائل تغنى عنه بحيث لا تفقد اللغة شيئا أساســيا مــنها: فــ"اخلولق" مثلا تنوب عنها "عسى"، و"إنْ...لــمّا" نستعيض عنها بــ"ما ... إلا"، و"دَرَيْتُ سعيدا وفيًّا للعهد" يمكن أن نقول بدلا منها: "تيقنت/ تأكد لى أنه وفىٌّ للعهد"، وبالمثل يمكننا أن نقول: "ما أجمــل فلانــة" عوضــا عن" أَجْمِلْ بها"...وهكذا. أما إذا حذفنا التثنية والتأنيث والإعراب مثلا من لغتنا إلى الأبد، فماذا نحن فاعلون عندئذ؟

ويا ليت الأمر يقتصر على هذا الذى يقترحه أ. الشوباشى، فالواقع أن كــل من لا تعجبه اللغة العربية له اقتراحاته التى يريد لىّ عنقها إليها، فما العمل إذن؟ أنأخذ بكل تلك المقترحات؟ إذن ففى ضربة واحدة لن يبقى مــن قواعــد اللغــة التى نعرفها شىء! أم نأخذ مقترحات البعض ونهمل مقترحات البعض الآخر؟ ولكن على أى أساس سيكون قبولنا أو رفضنا؟

لقــد سبق أن نادى قاسم أمين مثلا فى كتيّبه المسمَّى:" كلمات" بتسكين أواخــر الألفاظ. كما نادى عبد العزيز فهمى باصطناع الحروف اللاتينية، وله كتاب فى هذا الموضوع اسمه "الحروف اللاتينية لكتابة العربية". وتابعه فى ذلــك ســلامة موســى، الذى نادى أيضا بإلغاء المثنى، ونبذ التذكير والتأنيث فى الجمادات والمعانى والأعداد أسوة بالإنجليزية (البلاغة العصرية واللغــة العربــية/ ١٠٢ومــا بعدها). ونادى طه حسين فى كتابه "نقد وإصــلاح" بأن نكتب الألفاظ كما ننطقها، وهو ما من شأنه إرباك اللغة وإملائها على السواء تمام الإرباك. وألقى أمين الخولى محاضرة عن التجديد فى النحو عام ١٩٤٣م نادى فيها بتنوين كل الأسماء وإلغاء باب "الممنوع مــن الصرف" إلى غير رجعة، وإعراب المثنى بالألف دائما، وإلزام "أبوك وأخــوك" الواو باستمرار، وإجراء جمع المذكر السالم فى كل أحواله مجرى كــلمة "حــين"، أى بالياء والتنوين مثل الاسم المفرد. ويمكن قراءة هذه المحاضــرة فى كتابه "مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب".

وقبل هذا كله نادى بعض المستشرقين والمبشرين، مثل وهلم سبيتا وسلدين ولمور ووليم ولكوكس، بهجران الفصحى واستبدال العامية بها، وتابعهم فى هــذه الدعوة المشؤومة بعض العرب من مسلمين ونصارى: ومنهم عثمان

صبرى، الذى ألف فى ذلك بحثين على الأقل وطبق دعوته فى روايتين كتبهما على النحو الجديد الذى اقترحه بلغة متكلفة مصطنعة، ولويس عوض، الذى كتب "مذكرات طالب بعثة" بلغة لا ندرى من أين أتى بها، لأنها لا تشبه أيا من العاميات التى نعرفها، وسعيد عقل الصليبى اللبنانى الذى كان يريد، لا تَرْك الفصحى فقط، بل إحياء النزعة الفينيقية أيضاً من بعد أن أجحمها الله... ترى ما الذى يبقى من لساننا العبقرى بعد هذا كله؟ وما سر هذه الدعوات المحمومة التى انطلقت أول ما انطلقت من قِبَل المستشرقين والمبشرين؟ إنهم يزعمون أن الفصحى لا تستطيع استيعاب العلوم الحديثة أو التعبير عنها؟ فهل يا ترى تستطيعه اللهجات العامية المتخلفة التى لا تاريخ لها على الإطلاق فى مجال الآداب أو العلوم أو الفنون، اللهم إلا بعض الأزجال قديما فى الأندلس، وهذه الأغانى والمسرحيات التى نسمعها فى المذياع أو نشاهدها على المسرح أو فى المرناء فى عصرنا الحالىّ، ثم الأمثال الشعبية؟ وهذا كل ما هنالك. ثم ما القول فى هذه الآلاف المؤلفة من الكتب والبحوث والمقالات والدراسات والمحاضرات والأحاديث العلمية التى صبها أصحابها فى قالب الفصحى ولم يَدُرْ فى خَلَدهم لحظةً أن يكتبوها بالعامية؟ أَوَعلينا أن نلغى عقولنا

ونصدق هذا التدليس؟ إن مثل هذه الشبهات لا تجوز على أى شخص له عقل فى رأسه.

والآن نــريد أن نــنظر فيما قاله كاتبنا لنناقشه. ولكن لا بد أولا من إيضــاح نقطــة على جانب كبير من الأهمية، فقد يستغرب بعض القراء موقفى هذا الذى يبدو متشددا ويتصورون أنه مبالغة فى الخوف مما لا مخافة فــيه. والواقع أن المسألة ليست كما تبدو للعيان، إذ إن هذه الخطوة التى يدعونا المؤلف إلى اتخاذها هى بمثابة خلع الطوبة الأولى من الجدار، التى إن تم خلعهــا كــان خلــع الأحجار الباقية أسهل شىء فى الوجود كما هو معلــوم، فمعظم النار من مستصغر الشرر، ورحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحــدة. وهناك مثالان قريبان جدا خبرتهما بنفسى، إذ صدر منذ عامين كــتاب يحمل فيه صاحبه على سيبويه ويدعو إلى نبذ الإعراب والفصحى والاستعاضــة عنها بالعامية، وشرعت فى كتابة رد عليه رغم أن أحدا لم يســمع به من قبل ورغم ما يعكسه الكتاب من جهل مبين وتهور أحمق. وكــان رأى بعض من عرفوا بنيّتى أنه لا داعى لأن أشغل نفسى بشخص مــثله ليس على شىء من العلم. إلا أننى كان لى رؤية أخرى، فقد تنبهتُ إلى مغزى أن تنشر له كتابَه التافهَ دارُ نشرٍ كبيرةٌ مشهورةٌ وفى حلةٍ جذابةٍ

فاخرة، وأن يكتب عنه بعض الصحافيين واصفا إياه بأنه حلقة فى سلسلة اللغويـــين الكبار بدءا بابن جنى، وانتهاء بإبراهيم اليازجى. المهم أننى، بعد أن أصدرت بعدة أشهرٍ كتابى "دفاع عن النحو والفصحى ـــ الدعوة إلى العامية تطلّ برأسها من جديد"، الذى فنَّدْتُ فيه الهراء الماسخ الذى هرف بـــه صاحبنا، علمت من أحد الأصدقاء أن ذلك الجاهل المتهور قد أصدر كـــتابا آخر يهاجم فيه كتب الأحاديث والمحدّثين، على الرغم من أنه كان حريصـــا، أثنـــــاء هجومه على النحو وسيبويه، أن يطمئننــــــا بأن دعوتـــه لا تَمَـــسّ الدينَ بأى سوء. وهاهو ذا الدين قد مسَّه هو نفسه لا سواه من خلال إنكاره الأحاديث النبوية التى تمثل المصدر الثانى للتشريع فى الإســـلام، و لم تمرّ على طمأنته الكاذبة لنا إلا سنتان اثنتان لا غير. والبقية تـــأتى! كذلـــك كنت قد لاحظت، فى ثمانينات القرن الماضى، ما يكتبه خلـــيل عبد الكريم من مقالات فى جريدة "الأهالى" يدعو فيها إلى وجوب الـــنأى بالدين عن ميدان السياسة والاقتصاد والاقتصار منه على جوانب العـــبادة والأخـــلاق حفاظا على قدسيته وطهارته كما يقول هو وأمثاله، وكـــأن الدين لم يترل لتطهير السياسة والاقتصاد مما يخالطهما من رِجْس، بـــل لنلفّه فى ورق سلوفان ونضعه على الرفّ كى نمتِّع أبصارنا به أو لنبلّه

ونشـــرب مـــنقوعه على الريق. ثم وجدتُ بعد ذلك بقليل أنه شرع يلمز هذيـــن الجانبين أيضا، لِيُثَنِّيَ بالتنقص من الصحابة، مع بعض الخبطات من تحـــت لتحـــت فى شخص النبى علبه السلام، وهو ما استفزنى للرد عليه وإظهـــار جهلـــه ونـــياته السيئة فى كتابى "اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة". ثم كشف الرجل الغطاء تماما عن مقاصده وظهر كتاب باسمه يقول فيه عن سيد النبيين والمرسلين إن خديجة بنـــت خُوَيْلِد وورقة بن نوفل هما اللذان أعدّاه للنبوة وصنعاه صناعة، وإن خديجـــة قـــد "صَـــنْفَرَتْه وقَلْوَظَـــتْه" (هكذا بالنص على أسلوب الحُوذِيّة والحشاشين)، فدفعنى هذا مرة ثانية إلى الرد على قلة الأدب تلك فى كتاب بعنوان "لكنّ محمدا لا بَوَاكِيَ له" عبّرت فيه عن شكّى القوى فى أن يكون مؤلفـــه شخصـــا ينتمى إلى أسرة مسلمة مهما يكن رأيه الحقيقى فى دين محمـــد، ورجَّحْتُ، بناء على أسبابٍ رأيتُها جِدّ وجيهة، أن يكون وراءه مبشـــر رقيع يتنقّب بالاسم المذكور على الغلاف، برضا صاحبه طبعا! ثم هـــاهو ذا مؤلفـــنا، على رقته ودماثة نفسه كما قلت، قد وقعتُ له على عبارة عارضة، لكن لها دلالتها الخطيرة، إذ وجدته يقول فى الصفحة المائة والعشـــرين، زاريا على من سماهم "الذين يفرضون مرجعياتٍ سَلَفِيّةً لكل

قضايا المجتمع ومشكلاته المستعصية"، إنهم "يقحمون الدين الحنيف فى كل شـــىء. لـــيس فى السياســـة فقط، لكن فى التعاملات اليومية والعلاقات الاجتماعـــية والقوانين وقواعد السلوك العام". ترى يا إلهى ما الذى يتبقى مـــن "الدين الحنيف" بعد أن ننحّيه عن ميدان السياسة والقوانين والسلوك العام والعلاقات الاجتماعية؟ أسيظل بعد هذا "دينا"، و"حنيفا" أيضا؟ إننا نشـــمئز مـــن شـــرب الخمر ومن لحم الخنزير والزنا واللواط والسحاق والـــتعامل بالـــربا بسبب نهى الشريعة المغلظ عنها، ونحترم الكبير ونصل الـــرحم ونغـــض البصر عن التطلع إلى النساء ونأكل بيمناننا ونسمى الله عـــندئذ ونحمـــده بعـــد الفراغ من الطعام لأن ديننا قد حث على ذلك، ونســـتهجن تـــبرج المرأة أو تشبّهها بالرجال أو تشبّه الرجال بها لأنه غير مقـــبول فى ديـــن محمـــد، ونستحرم الربا لأنه ممنوع فى القرآن والسنة، وقوانيننا فى الزواج والطلاق والميراث مثلا مستقاة من الإسلام...وهكذا. فهـــل يريد المؤلف منا أن نلقى كل هذه الأوامر والنواهى وراء ظهورنا أم ماذا ؟

والآن مـــع مقـــترحات أ. الشوباشي: وأول شيء نقف عنده ما قاله بشـــأن المفعـــول به، ونصّه: "ولعل من أبرز أسباب تعقيد العربية ووقوع

الغالبية فى شَرَك الخطإ هو المفعول به. والمشكلة أن المفعول به فى العربية لا يُعْـــرَف من مكانه فى الجملة، وإنما من إعرابه، وبالتالى من تشكيله. وأرى أنـــه من الأقرب إلى المنطق أن نقول مثلا: "رأيت رجلْ طويلْ يأكلْ خبز" بـــدلا من "رأيت رجلا طويلا يأكل خبزا". والسبب الوحيد الذى يجعلنا نتمسك بالمفعول به "مُنَوَّنًا" هو أننا ورثناه من نحاة العصور السالفة وأصبح مألوفـــا لآذاننا. لكنه من غير المنطقى أن نقبل هذا السبب ونستكين لثقافة الأذن. وإذا قلنا: "رأيت رجلْ طويلْ يأكلْ خبز"، فهل يؤدى هذا للقارئ أو المستمع أى التباس فى المعنى؟ وبغير مكابرة فإن الغالبية العظمى يخطئون فى المفعـــول بـــه عند الكتابة، كما أنهم لا يفهمون معنى بعض الجمل غير المشـــكَّلة بسبب ذوبان المفعول به وسط مفردات الجملة حيث إن تركيبة اللغة العربية لا تحدد له مكانا محسوبا ومعروفا سلفا"(ص١٧٢).

وتعلـــيقى عـــلى هـــذا هو أن المسألة التى يتكلم عنها الأستاذ غير مقصورة على المفعول به، بل تشمل تقريبا كل الأسماء والأفعال المضارعة أيضا، إذ إن وظائف الكلمات فى لغتنا لا تتضح أساسا إلا بضبطها. كما أنـــى لا أفهـــم تخصيصــــه "التنوين" بالذات باعتراضه، والمفعول به وغير المفعـــول بــــه لا ينوَّن فى جميع الحالات كما هو معروف؟ فهذا دليل آخر

علـى أن المسائل فى ذهنه غير واضحة. أما بالنسبة لثقافة الأذن التى يعدّها مـن عـيوب العـرب فعلينا أن نلاحظ أنه يتكلم، لا عن عرب الجزيرة وحدهم، بل عن المصريين والعراقيين والشوام والمغاربة والسودانيين، فهل هؤلاء جميعا ثقافتهم أذنية مع أن أغلبهم لم يكونوا يوما أميين يعتمدون فى آدابهم ومعارفهم على الأذن والحفظ والمناقلة الشفوية بالمعنى الذى نقصده حـين نتكـلم عـن العرب الأصلاء أيام الجاهلية؟ وحتى بالنسبة للعرب الأصـلاء، أيظن المؤلف أنهم ظلوا لا يتطورون حتى بعد أن أصبحوا سادة الدنـيا فى العلـوم والآداب؟ لقـد كان الأوربيون إلى قرون قليلة خلت متخلفين ومتوحشين بطريقة مزرية، وكان العرب الذين لا يعجبون مؤلفنا الآن يسخرون منهم ومن جهلهم وخشونتهم. فهل نظل ننعت الأوربيين بـأنهم متوحشـون أميون إلى أبد الآبدين؟ ثم ما العيب فى الاعتماد على الأذن فـيما ينبغى الاحتكام إلى الأذن فيه؟ إن التنوين، بلا شك، يضفى عـلى الكلمة موسيقية يجعلها أجمل وأقدر على غزو القلوب، فهل نتخلى بهـذه البسـاطة عن التنوين، وبخاصة أن آذاننا، كما تقول، قد ألفته؟ إن اقـتراحك هـذا يذكرنى بالتركى الذى اشترى بعض القُلَل ووضعها أمام بيته، ثم جلس إليها، وكلما مر أحد السابلة من خلق الله الغَلابَى من أمثالى

ومـــدّ يده إلى واحدة منها ليبلّ ريقه الناشف أسرع التركى فنهره قائلا، وهـــو يشير إلى قُلّة أخرى بعيدة: "اترك هذه، واشرب من تلك!". طيب! ثلاثـــة أيمان بالله العظيم يا أستاذ شوباشى ما أنا شارب إلا من القُلّة التى أُحِبّ، والذى تريد أن تعمله، اعمله!

إن المعيار الذى تتخذه هنا هو أن تؤدى الكلمة المعنى، والسلام. لكن مـــن قال إن هذا معيار سليم فى كل الأحوال؟ ترى لماذا جئتَ لابسًا بدلةً وربـــاط رقـــبة وكنت على "سِنْجَة عشرة" يوم تسجيل الحلقة التلفازية الخاصـــة بمناقشة كتابك؟ لقد كان يكفى أن تلبس مثلى قميصا وسروالا. لا، بـــل إنه ليكفى أن يضع الواحد منا خرقة على جسمه إذا أراد الخروج للشارع! لا، بل إنه ليس للخرقة أي داع فى أوقات الحر، ولْيخرج الواحد مـــنا كما ولدته أمه، على الأقل لنوفر العملة الصعبة التى نشترى بها آلات الغـــزل والنســـيج أو التى نشترى بها الملابس الجاهزة حتى لو كانت من المنـــتوجات الصينية التى أسعارها فى متناول أى "كحيان عدمان"، وأنت سيـــد العارفين بأن بلادنا فى حاجة إلى كل دولار نُدبِّقه كى يهبشه بعد ذلك بالملايين أىُّ لص من خريجى مدرسة " خذ الفلوس واجْرِ" من شاكلة المرأة الحديدية! (المرأة الحديدية من الطبعة المصرية، لا الإنجليزية من أمثال

مســـز ثاتشـــر، التى ظُفْرُها برقبة ألف ممن يُسَمَّوْن بـــ"الرجال" من العالم السكّة الذى يدعونه: "العالم الثالث" رغم كراهيتى الشديدة لها ولعنجهيتها ولوقوفهـــا ضـــد قضـــايانا). ومرة أخرى أقول: لماذا يا ترى نحرص فى الحفـــلات والمناسبات السعيدة على تزيين المائدة عندما نجلس إلى الطعام، وعـــلى إضاءة الشموع الخافتة بدلا من الثريا التى اشتريناها بالغالى ودفعنا فـــيها شيئًا وشويّات، وعلى تشغيل موسيقى هادئة من النوع الكلاسيك الـــتى يغرم بها من لا يعجبهم من المثقفين "نِصْف لبّة" موسيقانا من عزف خـــالد الذكر المعلم حسب الله حتى يقال عنهم إن ذوقهم أوربى، ويقوم عـــلى تقديم الطعام لنا جرسونٌ أنيق يرتدى "بابيونة" فى رقبته وينحنى فى كل مرة بأدب يفقع المرارة بل يفلق الحجر، واضعا طَبَقًا وراء طبق وعلى راحته تماما (ولماذا العجلة؟ هل سيفوته القطار؟)، ونحن نبتسم له رغم أن عصـــافير بطوننا لا تكفّ عن الزقزقة وتود لو نَزَلَتْ على الطعام "حَتَتَك بَتَتَك" غير مبالية بهذا الذى يسمونه: "الإتيكيت"، لعنة الله عليه؟ ألم يكن يكفى أن يُدَلَق الطعام على الأرض دَلْقًا، وعلى كل من يريد أن يأكل أن ينبطح على بطنه ويلعقه كما تفعل القطط مثلا؟ ألم نكن سنشبع؟ أم كان الطعـــام ســـيقول: لا؟ ولماذا كذلك الرقص والغناء؟ ألا يكفى أننا نمشى

ونتكـــلم ونصيح؟ ألا بد من الحركات والأصوات الموقّعة؟ ولماذا كل هذه القواعد الكثيرة المعقدة التى يتحكم بها أهل الفيفا فى لعبة الكرة؟ لقد كان الـــناس قديمـــا يلعبونها كيفما اتفق فيركل الواحد منهم الكرة أو خُصْيَتَىْ غريمه: لا يهم! كُلّه ماشٍ! وكان الذى ينكسر من اللاعبين أو حتى يموت يـــروح فى ستين ألف داهية دون أن يسأل عنه أحد أو يدفع له دية، فما الذى جعل خبراء الفيفا يحشرون أنوفهم فى أمور الكرة ويحرمون الناس من الحـــرية الـــتى كانوا يتمتعون بها فى ممارستها؟ إنها الحضارة، كما تعرف، والرغـــبة عند أهل الذوق الراقى فى المتعة يا أستاذ. ولكنك تتجاهل ذلك عـــند مناقشتك لأمور النحو العربى! وأرجو ألا يقول لى أحد: وهل أوربا غـــير متحضرة، وليس عندها إعراب؟ فجوابى جاهز، وهو أن هذه مسألة أذواق، وهم لهم ذوقهم، ونحن لنا ذوقنا، مثلما لهم نبيهم، ولنا نبينا، وكل من له نبىّ يصلى عليه! وفوق ذلك فالإعراب فى لغتنا يعطيها مرونة عجيبة فى بـــناء الجملـــة لا تتوفر فى أية لغة أخرى، فترانا نقدّم ونؤخّر، ونحذف ونَذْكُـــر حسبما تقتضيه البلاغة. كما أن التشكيل جزء أصيل فى الإملاء العـــربى، على الأقل لإزالة الالتباس كما لا بد أن يكون القراء قد لاحظوا ذلـــك فـــيما أكتب، وإن كنت أسرف قليلا فى هذا السبيل. أما اللغات

الأوربـــية التى ترى أنها هى المثال الذى ينبغى أن نحتذيه فهى لغات متيبّسة الحـــركة كالذى فى رقبته خشونة أو غضروف، فهو لا يستطيع أن يتلفت براحـــته، بل عليه أن يظل ناظرا قدامه، أو كالقطار الذى لا يمكنه إلا أن يجرى فوق القضبان وإلى الأمام فقط آخذا كل شىء فى وجهه، لكن ليس عـــلى طريقة قطار كَفْر الدوّار الذى دخل فى البيوت والدكاكين وحصد مـــن الأرواح ما لا أعرف عدده الآن. أتذكرونه؟ والله إنى لحزينٌ وآخذٌ على خاطرى منك كثيرا يا أستاذ شوباشى، فأنت ابن الرجل الذى أمتعنا، ونحـــن شـــبانٌ، بأسلوبه العذب الذى يغزو القلوب غزوا، سواء فى ذلك مؤلفاته أو مترجماته. لا عليكِ يا لغتنا العبقرية الفاتنة! غدًا، حين نزيح غُمّةَ التخلف والكسل عن كواهلنا وسوادَ خزيه عن وجوهنا، يأتيكِ من يقدّر جمـــالك وأناقـــتك وسحرك ودلالك وأصالة البيت الذى أنت منه ويدفع فـــيك المهر الذى تستحقين! صحيـــح: لم يجـــدوا فى الورد عيبا فقـــالوا له: يا أحمـــر الخـــدين!

ونأتى إلى اقتراح كاتبنا بحذف التأنيث. وأذكر أن د. عبد المنعم تليمة قد دافع، فى حلقة التلفاز التى تكررت الإشارة إليها آنفا، عن هذا الاقتراح قـــائلا إننا الآن فى عصر يهتم بحقوق المرأة، ولا يقبل أبدا أية تفرقة بينها

وبين الرجل. وعلى هذا فلا بد أن تُعَامَل كالرجل سواءً بسواءٍ فى الضمائر والأسمــاء والصــفات. وقد رددتُ على ذلك بالقول بأن الله جعل كل الأحياء ذكرا وأنثى، ويوم أن يتوصل العلماء إلى جعل البشر جنسًا واحدًا لا هــو ذكر ولا هو أنثى، فعند ذلك سوف تختفى تلقائيا ظاهرة التأنيث. وعلينا إذن ان ننتظر لنرى ماذا سيتم! أما قبل ذلك فلا أدرى سببا للمناداة بإلغائهــا. ثم أضــفتُ أن حقوق المرأة وحرصها على التميز عن الرجل وعــدم الخضــوع له يقتضى منا أن نُفْرِدها بضمائرَ وصيغٍ اسميةٍ ووصفيةٍ خاصّةٍ بها، وإلا كانت مجرد ظل لـــ"سِى السيّد" فنعبّر عنها بما نستعمله له دون تفــرقة. ثم إن التأنيــث موجــود مثلا فى اللغة الفرنسية التى يتقنها الكاتــب، لا فى الضمائر والأسماء والصفات فقط، بل فى أدوات التعريف والتــنكير أيضا، على خلاف ما عندنا، إذ لا تعرف لغتنا إلا أداة تعريف واحدة للمذكر والمؤنث إفرادًا وتثنيةً وجمعًا، أما التنكير فليس له لدينا أداة. كمــا أن لتأنيث الأسماء والصفات فى لغة فولتير قواعد متعددة حسبما هو معــروف. لكــن البعض قد يعترض بأن المنطق كان يقتضى اتفاق العدد عــندنا فى التذكير والتأنيث مع الاسم المعدود فنقول: "تسعة نساء، وتسع رجــال"، لا العكــس. ولا أحــب أن أضيع وقتى ووقت القارئ ووقت

المعــترض فى مناقشـــة مـــثل هذا الاعتراض، بل أختصر الكلام اختصارا وأقـــول: هذا الذى كان، وهذا الذى حصل، ويستوى من حيث الصعوبة أو الســـهولة أن نخالف بين العدد والمعدود أو نوافق. المهم أن هناك قاعدة تحكـــم هذا، وأن الأمر ليس فوضى. وليس من المعقول أن نأتى للغتنا كل فترة فنعبث بها حتى تصير كالخرقة الممزقة. وبالمناسبة فليست هناك لغة فى الأرض أهلُهـــا راضون عنها تمام الرضا حتى ولا الإنجليزية، التى تعانى من عـــيوب كثيرة جدا على عكس ما يوحى به كلام الأستاذ الكاتب. وكما أكرر دائما، فالعبرة بالتكرار والتعود، وكل صعبٍ لا بد أن يَذِلّ ويُسْلِس قيادَه لمن يَرُوضه بالاهتمام والجِدّ والحرص على الإتقان.

وقـــد أُثـــيرت مسألة إطلاق كلمة "أستاذ" بصغتها المذكّرة هذه على بعض دكتورات الجامعة، ودافع الدكتور تليمة عن هذا الصنيع. لكنى أرى أنـــه مجرد تقليد ممسوخ للغة جون بول، التى لا يصح اتخاذها هى أو غيرها مثالا أعلى للغتنا الدقيقة الأنيقة المصفاة من كل أثر للخشونة الموجودة فى الإنجلـــيزية أو غـــير الإنجليزية. إن هذا يذكّرنى بما صنعه بنو إسرائيل فور نجـــاتهم مـــن بطش فرعون، الذى رَأَوْه بأم أعينهم يغرق مع جنوده ومَلَئه لكنهم لم يتعظوا، إذ ما إن أَتَوْا فى سيناء على قوم يعكفون على أصنام لهم

حـــتى صاحوا بنبيّهم قائلين: "يا موسى، اجعلْ لنا إلهًا كما لهم آلهة. قال: إنكـــم قـــوم تجهلـــون* إن هـــؤلاء مُتَـــبَّرٌ ما هم فيه، وباطلٌ ما كانوا يعملون"(الأعراف/ ١٣٩ـــ ١٤٠). كذلك أذكر أنه كانت لجيراننا بنتٌ حلـــوةٌ جدا حباها الله شعرًا وَحْفًا ناعمًا جميلاً يصل إلى خَصْرها ويضفى عليها مزيدا من الفتنة والبهاء، لكنها بنَزَقها وقلة عقلها أبت إلا أن تقصّه "آلاجَرْسُون" تقليدا لصديقة لها شعرُها شائك كالليفة الجديدة ظلت تزنّ عليها وتغريها بذلك غيرةً من شعرها الفاتن الجميل. وعبثا حاولت أمها أن تبصّرها بسوء رأيها، فقد كانت، كما قلت، قليلة العقل عنيدة. ثم رأيناها بعـــد أن نالت مرادها وقد فقدت شيئا كثيرا من حلاوتها وفتنتها. ولكنْ على من تقرأ مزاميرَك يا داود؟

ومـــن بين ما أخذه المؤلف على الفصحى وجودُ التثنية فيها. ولست فى الحـــق أدرى كـــيف يمكن أن تكون هذه السمة مَعَابة تؤخذ على لغة القرآن، إذ هى بالعكس دليل على الدقة، فبدلا من أن تتعامل مع ما يزيد عـــلى واحد نفس المعاملة نراها تفرق بين الاثنين وما هو أكبر من ذلك. والأستاذ المؤلف يتخذ من اللغات الأوربية هنا أيضا معيارا يعاير به لغتنا، ناســـيا أن لكـــل لسان شخصيته وأوضاعه، فضلا عن أن الحياة ذاتها قد

أفـــردت المـــثنى بوضع خاص، فالكون كله قائم على التقابلات الثنائية: فالـــيمين يقابلـــه الشمال، والأعلى يقابله الأسفل، والأمام يقابله الوراء، والذكـــر تقابلـــه الأنـــثى، والسماء تقابلها الأرض، والجنة تقابلها النار، والماضـــى يقابله المستقبل، والبحر يقابله البر...وهكذا. وفى الإنجليزية ما زالـــت هناك كلمة "both: كلاهما" فى مقابل "all: كلّهم"، وكذلك عـــبارة "one another: كلاهما الآخر" فى مقابل "each other: كـــل مـــنهم الآخر"، وهو أمر له دلالته التى لا ينبغى أن تفوتنا. سيقول الأستاذ: لكن الطلبة يضيقون بهذا، فأقول له: ليس للكسالى الحق فى فرض كســـلهم عـــلى الحياة. إن سقوط الهمة والكسل مسؤولان عن الكوارث المـــتلاحقة الـــتى تنزل على رؤوسنا منذ قرون، ولا تكاد تترك لنا فرصة لنتـــنفس ونقـــبّ على وجه الدنيا. كفانا بلادة وجمودا! ولنكن، ولو لمرة واحدة، كأجدادنا الذين فتحوا العالم، وليس فى أيديهم غير هذه اللغة التى لا تعجـــب الـــبعضَ والكِتَابِ الذى نزل بها، والذى لا يستطيع أقوام أن يـــناموا مـــلء أعيـــنهم رغـــم كل ما فى أيديهم من سلطان وثروة وقوة وجـــبروت مـــا دام هناك من يقرؤه ويؤمن به! أما مبدأ "كله عند العرب صابون" فلا محل له من الإعراب. وهنا ينبغى أن نشير إلى ما جاء فى نهاية

كــلام المؤلف حول هذه القضية من أن اللهجات العامية قد تخلصت من المــثنى تلقائيا وأصبح الاثنان جمعا كما يقتضى المنطق(ص ١٧٤). فأما أن المــنطق يقتضى هذا فغير صحيح كما سبق أن وضحنا، وأما أن العاميات قــد تخلصــت من المثنى، فإن كان المقصود أنها تخلصت منه تماما فهذا لم يحــدث، إذ ما زلنا نقول فى لغتنا اليومية: ولدين وبنتين وكتابين وورقتين وأستاذين ومدرّستين... إلخ، لكنه صحيح فى مجال الضمائر رغم ذلك.

وقد حاول مقدم البرنامج التلفازى الذى نوقش فيه كتاب الأستاذ المؤلــف أن يســوّغ ما نادى به من معاملة المثنى معاملة الجمع، فاستشهد بقوــله تعالى: "وداودَ وسليمانَ إذ يحكُمان فى الحرث إذ نَفَشَتْ فيه غنمُ القــوم، وكــنا لحكمهــم شاهدين"(الأنبياء/ ٧٨)، وبقول أمير الشعراء مخاطبًا النبى عليه السلام:

فإذا رَحِمْتَ فأنتَ أمٌّ أو أبٌ   هذان فى الدنيا هما الرُّحَماءُ

حيــث اســتعمل القــرآن ضمير الجمع فى كلمة: "حكمــهم" لداود وســليمان، وهما اثنان فقط، واستخدم شوقى صيغة الجمع: "الرحماء" فى وصف الوالدين، وهما اثنان أيضا فقط. وكان جوابى أن ذلك ليس بلازم، فكــلمة "حكمهــم" يدخل فيها أيضا "القوم" الذين احتكموا إلى النبيين

الكــريمين، ومــن ثم يكون ضمير الجمع عائدا على أكثر من اثنين: داود وســليمان وأولئك القوم. كما أن فى بيت شوقى غرضا بلاغيا مؤدّاه أن رحمة الأبوين هى الرحمة الحقيقية أو تَعْدِل جميع الرحمة الموجودة فى العالم، فكأنهمــا كــل الــرحماء فى الدنيا. أى أن الكلام هنا على المجاز لا على الحقيقة. ويمكن أن أزيد أيضا بعض ما أورده المرحوم محمد خليفة التونسى فى كــتابه "أضواء على لغتنا السمحة" (كتاب العربى/ ١٥ أكتوبر ١٩٨٥ م/ ٣٢ــ ٣٥، ١٧٨ــ ١٨٠) مــن شواهد تبدو وكأنها تجرى عكس ما أقــول، فقــد أورد مثلا قوله عَزَّ من قائل: "هذان خَصْمان اختصموا فى ربهــم: فالذين كفروا قُطِّعَتْ لهم ثياب من نار... * إن الله يُدْخِل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار..." (الحج/ ١٩ــ ٢٣)، حيث قال سبحانه: "خَصْمان اختصموا" واصفًا المثنى بالجمع. والرد هــو أن الخصــمين هــنا ليسا فردين كما يُظَنّ، بل جماعتين: هما جماعة الكافرين، وجماعة المؤمنين كما هو واضح من بقية الكلام. وبالمثل احتج، رحمــه الله، بالآية الكريمة التالية التى تتحدث عن قصة الخلق والحوار الذى دار بــين الله سبحانه وبين السماء والأرض حينذاك قائلةً: "ثم استوى إلى الســماء وهــى دُخَان فقال لها وللأرض: ائتيا طَوْعًا أو كَرْهًا. قالتا: أتينا

طـــائعِين"(فُصِّلَتْ/ ١١)، حيث قال تعالى عن السماء والأرض: "طائعِين" لا "طائعـــتين". لكـــن توجيه ذلك سهل غاية السهولة، فالمقصود السماء والأرض وسكانهما أيضا لا السماء والأرض فحسب، ولذلك استخدمت الآية الكريمة جمع المذكر السالم الذى لا يستخدم لغير العاقل إلا فى غرض بلاغـــى كمـــا هو الحال هنا. ومما يعضد هذا أن القرآن الكريم قد يصف الاسم المفرد من هذا النوع أو يخبر عنه بصيغة الجمع أيضا مما يدل على أن المســـألة ليست من باب معاملة المثنى معاملة الجمع. وهذه بعض الشواهد على ما أقول: "فإن حزب الله هم الغالبون" (المائدة/ ٥٦)، "ألا إن حزب الله هـــم المفـــلحون" (المجادلـــة/ ٢٢)، "وهل أتاك نبأُ الخَصْم إذ تَسَوَّروا المحـــراب" (ص/ ٢١)، "وَدَّتْ طائفـــةٌ من أهل الكتاب لو يُضِلّونكم"(آل عمـــران/ ٦٩)، "ولْتَأْتِ طائفةٌ أخرى لم يُصَلّوا فَلْيُصَلّوا معك" (النساء/ ١٠٢). والذى أريد أن أقوله من خلال هذا التوضيح أن القواعد النحوية ينبغى أن تكون مُطَّرِدة ما أمكن حتى لا يرتبك من يستعملونها.

ومما يعيب به المؤلف اللغةَ الفصحى أيضا الجملةُ الفعلية. وهو متأثر فى هذا باللغات الأوربية التى لا تعرف إلا الجملة الاسمية، مما يذكّرنى بأيام الفقر والعزوبة حين كان طعامنا فى غالب الأحيان شطائر الفول والفلافل

ومـــا إلـــيها. فهل هناك عاقل يعرف ما يُصْلِح صحته ويريد أن يستمتع بأذواق الطعام المختلفة التى أنعم الله بها على عباده يستمر على هذه الخطة القَشِــفة حتى بعد أن تتيسر أحواله وتتسع قدراته المادية؟ إن وجود لونين من الجُمَل فى "لغتنا الجميلة"، على حد وصف فاروق شوشة لها، هو نعمة مـــن النعم العظيمة، إذ يتيح لنا أن ننوِّع أساليبنا على ما نحب بدلا من أن نسير دائما على وتيرة واحدة كما سبق القول عندما أشرت إلى المرونة التى تتمـــتع بها الجملة العربية الفصيحة، فهل نرفس هذه النعمة لأن الأوربيين محـــرومون مـــنها فى لغاتهم، ونفعل كما فعل بنو إسرائيل حين أرادوا أن يكـــون لهم إله آخر مع الله كما للوثنيين الذين مَرُّوا بهم فى سيناء آلهة، أو كالبنـــت صـــاحبة الشعر الحريرى الطويل الجميل التى لم تهدأ إلا بعد أن قصّـــته تقليدا أعمى لما فعلته صديقتها بشعرها الليفىّ الأكرت؟ إننى أربأ بأنفســـنا أن نكون كرؤساء القبائل الهمجية فى غابات أفريقيا أيام الهجمة الأوربـــية المســـعورة عـــلى تلك القارة حينما كان طلائع الاستعمار من شـــياطين الإنـــس يضحكون على أولئك الزعماء فيُغْرونهم بقِطَع الزجاج الملونة التى لا قيمة لها على الإطلاق فى مقابل الألماس والذهب وغيرهما من المعادن والأحجار الكريمة. لكننا، والحمد لله، لسنا من التخلف والانخداع

بهذه البهرجات الزائفة الرخيصة والفرح بها وإيثارها على الألماس والياقوت واللؤلـو إلى هـذا الحد! والأستاذ الشوباشى ينتمى إلى بيت علم وأدب، وكان أبوه من كبار الأدباء والنقاد والمترجمين، فكيف يقع فى هذا الشَّرَك؟ إننا جميعا نريد للغتنا انتعاشا وازدهارا كما كان حالها أيام مجدها العظيم، لكن السبيل الذى ينتهجه كاتبنا ليس هو السبيل المؤدى إلى هذه الغاية.

وثَمَّـةَ نقطة لا بد من توضيحها فى هذا السياق، وهى أن الفصحى، رغـم كل شىء، قد نهضت نهوضًا عظيمًا ورائعًا من عثارها الذى كانت مرتكسـة فيه زمنًا فى العهد العثمانى حيث كانت الأمية والجهل ضاربين بأطنابهما فى أقطار العرب، والدليل على ما أقول أن الأمية قد انحسرت إلى حـد ملموس وانتشر التعليم، وأصبح عندنا الآن ذخيرة من الأساليب قد يصـعب أن نعثر على أشباهها حتى فى أيام الازدهار الثقافى للأمة العربية أيام العباسيين. وقد سبق أن أعطيت بعض الأمثلة على أصحاب الأساليب الفخمة فى عصرنا بما يغنى عن إعادة القول فيها هنا. لكننا، مع ذلك، نريد لهـذه اللغة الكريمة أن تنتعش وتزدهر أكثر وأكثر، وأن يشعر الناس جميعا بحلاوتهـا وروعـتها وفتنتها ويتذوقوا النعمة التى أنعم بها المولى عليهم فى شخصـها، وبخاصـة أن التفوق العام فيها مرتبط بالتفوق العلمى والأدبى

والـــثقافى ممـــا نحتاجه للخروج من تخلفنا الحالى الذى أوردنا مورد العجز والــذل وأطمع فينا من يساوى ومن لا يساوى من دول العالم، فلم يعد أحـــد يحترمنا أو يقيم لنا وزنا حتى إن الفيلبين وهندوراس ولا أدرى مَنْ أيضا مِنَ الدول التى لا يعرف أحد مكانها على الخريطة تشترك فى احتلال العـــراق مســـاندة للأمريكان، وحتى إن أحدا فى الأمم المتحدة لا يبالى بما يحـــدث لإخوانـــنا الفلســـطينيين الأبطال على يد عصابات بنى صهيون المدعومـــين ماليا وعسكريا وسياسيا من أمريكا والغرب كله من مجازر لا تـــتوقف يوما ولو ساعةً من نهار، على حين أنه لو تألم شخص واحد من الأقليات فى بلد إسلامى أو عربى لوجعٍ فى ظفر خنصره الشمال من قدمه الحافـــية الجرباء لقام مجلس الأمن فى الأمم المتحدة بهيله وهيلمانه يدعو إلى اســـتقلال صـــاحب الظفر بدولة قائمة برأسها ومعاقبة العرب والمسلمين جميعا بسبب ما حدث لظفره! وبالمناسبة فالإنجليزية والفرنسية مثلا تقدِّمان الفعـــل، فى بعـــض الأحـــيان، على الاسم بما يشبه الجملة الفعلية عندنا، وتسميان هذا اللون من التركيب: "inversion"، وإن كانت الإنجليزية تتوسع فيه أكثر من الفرنسية.

ويعيـــب الأســـتاذ المؤلف كذلك لسان العرب بما يسميه "النقص

الغريـــب فى جـــزوف العلة"(ص ١٦٨). يقصد أننا لانعرف إلا الفتحة والكســـرة والضـــمة الصافية ومدّاها، بخلاف الفرنسية مثلا، التى تعرف حـــروف علة أخرى بالإضافة إلى ما تعرفه العربية، من مثل " e, u, y, ai, eu, eau, o"، إلى جانـــب الـــ"accent"، الذى يوضع على بعض هذه الحروف بأشكاله الثلاثة المعروفة. وهو عيب موهوم، إذ من ذا الذى يشعر أن ذلك يقيده فى التعبير عما يشاء؟ ثم إن هذه الحركات كثيرا مـــا تختلط وتتداخل من كلمة لأخرى فى لغة الإنجليز، بل أحيانا ما يكون وجودهـــا فـــيها صوريا حتى لينبغى عليك أن تحفظ نطق كل كلمة من كـــلماها تقريبا بالسماع رغم ذلك، إذ الكتابة فى كثير جدا من الحالات شـــىء، والـــنطق شىء آخر. كذلك فالإنجليزية والفرنسية ينقصهما من حروف لغتنا "الثاء والحاء والخاء والعين والغين والقاف والهاء"، ومع ذلك فإنـــنا لا نشغل أنفسنا كثيرا بمثل هذا الأمر ما دام أصحاهما لا يشعرون بأنـــه يشكل عبئا عليهم فى الإفصاح عما يريدون. وما دمنا قد دخلنا فى هـــذا الموضوع، فما رأى كاتبنا فى وجود الـــ"ph" مع الـــ"f" فى هاتين اللغـــتين؟ هـــل يرى له أى لزوم؟ وهل هو راض عن تبدل طريقة النطق للـــــ"d" والـــ"t" والـــ"s" من موضع إلى موضع ما بين ترقيق وتغليظ،

فضـــلا عـــن عدم نطق بعض الحروف المكتوبة؟ وهل يرى داعيا لوجود تركيـــبة الــ"th" فى الفرنسية ما دامت الــــ"t" وحدها تكفى؟ وهذا عـــلاوة عـــلى اختلاف نطق الــــ"c" والــــ"g" فيها وفى الإنجليزية حسب الحرف الذى يأتى بعدهما... إلخ. وبالمناسبة فقد أخطأ المؤلف هنا حـــين أراد أن يعلـــل الســـبب فى تسمية اللغة العربية بـــ"لغة الضاد"، إذ حســـب أن ذلـــك راجـــع إلى أنها هى اللغة الوحيدة فى العالم التى تفخّم "الـــدال" وتضخّمها فتقلبها "ضادا"(ص ١٤٩). فأما أنها، على الأقل فى نطـــاق علمنا، هى اللغة الوحيدة فى العالم التى تعرف نطق "الضاد" فهذا صحيح، لكن بمعنى غير المعنى الذى شرحه سيادته، لأن "الضاد"، كما جاء فى كلامه، ليست هى "الضاد" العربية الأصيلة بل "الضاد" حسبما ننطقها هـــنا فى مصـــر، وهذه موجودة فى الفرنسية والإنجليزية متمثلة فى تفخيم حرف الــ"d" فى كثير من الكلمات على ما هو معلوم، مثل "dogue" فى الأولى، و"double" فى الثانـــية. أما "الضاد" العربية فهى شىء بين "الضاد" المصرية و"الظاء".

كذلك يعيب الأستاذ شريف لغة العرب بأن غالبية الكلمات والأفعال فـــيها تـــتكون مـــن حروف ساكنة فقط، على عكس كل لغات العالم

الحديثة(ص ١٦٩)، وهي دعوى غير صحيحة، إذ الغلبة فيها إنما هي للحروف المتحركة لا الساكنة كما يعرف كل من له أدنى إلمام بلغتنا. أما إن كان يقصد الإملاء وأننا عادة ما نهمل تشكيل الكلمات فهذا شيء آخر لا علاقة له بما نحن فيه. ولكن لا بد مع ذلك من المسارعة إلى القول بأن السياق والتعود والإلمام بقواعد اللغة يعوّض عن هذا إلى حد كبير، علاوة على أن كثيرا من المؤلفين يحرصون على تشكيل ما يَرَوْن أنه بحاجة لذلك. ثم إن القارئ فى كثير من الأحيان لا يحتاج إلى التشكيل على الإطلاق، وهاهو ذا كتاب المؤلف بين أيدى القراء، وهو غير مشكَّل، فهل وجد أحدهم صعوبة فى قراءة أية كلمة فيه؟ لقد أورد سيادته، مثالا على الالتباس الذى يجده القارئ فى هذه الحالة، كلمةَ "قتلت" إذا لم يتم تشكيلها، لأنها يمكن أن تُنْطَق بعَشْر طُرُق. وأنا معه فى أن الكلمة المذكورة تقبل النطق فعلا بكل هذه الصُّوَر، لكنْ على المستوى النظرى فقط، أما على أرض الواقع العملى فالسياق والتعود والخبرة والإلمام بالقواعد يسهّل الأمر، كما قلت، إلى حد كبير، بل يعوّض كذلك عن غياب التشكيل تمام التعويض فى كثير من الأحيان، وإلا فكيف كان يقرأ الناس ما يقرأون كل لحظة من نهار منذ أن انتشرت الكتابة فى حياة العرب

حتى هذه الساعة؟ أكانوا يتهتهون قليلا ثم يتركون ما يقرأونه وينصرفون عنه إلى شيء آخر أم ماذا؟ ثم إنه إذا كانت الكلمة المذكورة تحتمل عشر طرق فى النطق فإن معظم الكلمات لا تحتمل إلا طريقة أو اثنتين لا غير كما هو معروف. وعلى أية حال فإن التشكيل، كما وضّحْتُ، يُعَدّ ركنا أساسيا فى إملائنا، بَيْدَ أن عبقرية لغة القرآن وانتظامها الشديد فى قواعد صرفها ونحوها يغنيان عن هذا التشكيل فى كثير جدا جدا جدا من الحالات، وبخاصة إذا كان القراء على شاكلتى أنا وأمثالى ممن يعرفون تلك القواعد جيدا. هذا، ولا يفوتنى أن أنبِّه إلى الخطإ الذى وقع فيه الكاتب حين قال إن "غالبية الكلمات والأفعال فى العربية تتكون من حروف ساكنة فقط"، إذ جعل "الكلمات" قسيمة لـ"الأفعال"، وهذا غير صحيح، فالأفعال قسم من أقسام "الكلمة". وعلى هذا فالصواب أن نقول: "الأسماء والأفعال والحروف"، أو أن نكتفى بذكر "الكلمات" فحسب، لأن الكلمات فى لغتنا تنقسم إلى "اسم وفعل وحرف" حسبما هو معروف.

وقد نال المترادفاتِ أيضا من هجوم الكاتب وزرايته نصيبٌ كافٍ، فأخذ يتألم من اتساع هذه الظاهرة فى لغتنا داعيا إلى الاكتفاء منها

بالقليل. وأنا فى الواقع لا أدرى كيف يمكن أن تكون هذه السِّمَة مَسَبَّةً فى لغـة القـرآن. ترى هل يمكن أن نجىء إلى رجل شديد الثراء بجدّه وعمله ودأبـه وذكائه وحيويته وطموحه فنقول له موبّخين: لماذا كل هذا الغنى والـنعمة الـتى أنت فيها؟ لم لا تكون فقيرا؟ أم هل يمكن أن نذهب إلى إحـدى الجمـيلات الفاتنات ونبكّتها قائلين: لماذا كل هذا الجمال الذى وَهَبَكِيه الله؟ أليس الأفضل أن تكونى قبيحة؟ وبالنسبة للمترادفات، فليقل لـنا الأستاذ الفاضل كيف يمكن أن نتخلص من هذا الفائض اللغوى؟ هل نعمل له محرقة؟ لكن أيضمن ألا يطلع علينا أحد المستشرقين فيتهم العرب والمسلمين بالتخلف والوحشية وحرق الكتب، وبخاصة أننا لم نستطع بعد أن نخلـص من التهمة الظالمة السخيفة بحرق مكتبة الإسكندرية رغم تفنيد عـدد من الكتاب الغرب أنفسهم لها بأدلة علمية لا يخرّ منها الماء؟ وهبْ أنـنا دمَّرنا الكتب، ولا أدرى كيف، لأن هذه المترادفات ليست موجودةً فى مكان واحد بحيث يمكن أن نرسل طائرة فتدك المكان فوق رؤوس هذه الكلمات اللعينة التى هى علة كل تخلفنا وذلنا، وتريحنا إلى الأبد منها ومما جلبـته لنا من عار وشنار، بالضبط مثلما فعلت أمريكا مع العراقيين الذين كـانوا متحصّنين فى ملجإ العامرية ببغداد أيام حرب "عاصفة الصحراء"،

فما الذى سنستفيده من هذا؟ إن تلك الألفاظ موجودة فى بطون القواميس ولا تسبب لنا أية مشكلة، فلماذا نشغل أنفسنا بها؟ أهى بمجرد الرغبة فى إثارة عاصفة فى فنجان؟ أما من يريد أن يستعملها فلسنا نملك له شيئا! أم ترى المؤلف الكريم يقترح إصدار تشريع بإعدامه أو سجنه مثلا؟ لكن المشكلة أن مثل هذا القانون سوف يكون فرصة رائعة لأنصار حقوق الإنسان فى الغرب كى يؤلّبوا علينا أمريكا (دستور يا أسيادى الأمريكان، دستور! اللهم اجعل كلامى خفيفا على الأسياد!) فتحتلّنا رغم أنهم يكرهون لغتنا ويعملون على القضاء عليها، وذلك على طريقتهم الشيطانية فى الإفادة من الشىء ونقيضه، كما فعلوا مع صدام حسين وبه، إذ استفادوا منه فى ضرب إيران، وشجعوه على غزو الكويت، ثم انقلبوا عليه واتهموه بالعدوان على هذين البلدين وبحيازة الأسلحة النووية التى اشترى معداتها من أوربا تحت سمعهم وبصرهم وهم ساكتون ما دامت النتيجة هى نزح ثروات العراق إلى بلاد الغرب!

إن كثرة المترادفات لهى دليل على الدقة الهائلة التى تتمتع بها لغة العرب، فتراها تسمّى الشىء أسماء مختلفة حسب الزاوية التى تنظر منها إليها، فالسيوف مثلا تسمى: "هندوانية" للدلالة على أنها صناعة هندية،

وكانــت الهــند وقتها مشهورة بصناعة السيوف، فهذه التسمية لون من الافــتخار، كما يقول الواحد منا الآن إن حاسوبه مثلا صناعة يابانية لا صينية. وقد تسمَّى أيضا بـ"البِيض" للإشارة إلى ناصع لونها، وقد يسمَّى الواحــد منها: "جُرَازا" للإيحاء بمقدرته الفائقة فى القطع من ضربة واحدة لا غير...وهكذا. على أن هناك سببا ثانيا وراء كثرة المترادفات عندنا، ألا وهو اختلاف القبائل قبل الإسلام فى تسمية بعض الأشياء، مثلما نقول فى مصــر الآن: "كرنب"، على حين يقول الشوام: "ملفوف"، ومثلما نقول: "طمــاطم"، ويقولون هم: "بندورة"...إلخ، علاوة على أن كثيرا من هذه المترادفات ليست فى الحقيقة تسميات مختلفة للشىء بل نُعُوتًا له استعملها الشعراء والكتاب دون موصوفاتها فظن المتعجلون أنها إسراف فى الترادف. لكــن ذلك كله لا يمثل لنا أية مشكلة، فهذه التسميات الكثيرة لا تتعدى بطــون المعاجم كما قلنا، أما عند الكتابة فلا أحد منا يستطيع أن يتذكر عــادةً إلا اسمــين أو ثلاثة أو أربعة مثلا لأى معنى كان فى يوم من الأيام يحظــى بوفرة فى التسميات. ويظل الباقى هناك مخزونا إستراتيجيا نستعمله عــند اللــزوم: إما لمسمّاه الأول، وإما فى معنى مجازى جديد، وإما لشىء مستحدَث لم يكن للعرب به عهد من قبل...إلخ.

ويشـــيد د. عثمان أمين بهذه الخصيصة من خصائص لغة الضاد قائلا إنهـــا تتفوق بها على لغات العالم، إذ لا توجد فى أى من هذه اللغات مثل تلـــك الوفرة من الألفاظ الدالة على الشيء منظورا إليه فى مختلف درجاته وأحواله، ومتفاوت صوره وألوانه. ثم ينقل عن حسن الشريف قوله، على ســـبيل التمثـــيل، إن "الظمـــأ والصَّدَى والأُوَام والهُيَام كلمات تدل على العطـــش، إلا أن كـــلا منها يصور درجة من درجاته: فأنت تعطش إذا أحسست بحاجة إلى الماء، ثم يشتد بك العطش فتظمأ، ثم يشتد بك الظمأ فتَصْدَى، ويشتد بك الصَّدَى فتَؤُوم، ويشتد بك الأُوَام فتَهِيم... وواضح أن هذه الخاصية العربية...تغنينا باللفظ الواحد عن عبارة مطوّلة تحدد المعنى المقصود، وتجعلنا نقول عن المشرف على الموت عطشا إنه "هائم"، حين لا يستطيع الفرنسى مثلا أن يؤدى هذا المعنى إلا فى ثلاث كلمات، إذ يقول : "مائتٌ من الظمإ: mourant de soif"، أو فى سبع كلمات ليكون المعنى أوضح فيقول: "على وشك أن يموت من الظمإ: sur le point de mourir de soif"، ثم يعقّب على هذا النقل قائلا إن "هذا المثال المتقدم يشير إلى خصيصة عربية أخرى لا نكاد نجد لها نظيرا فى غيرها من اللغات التى نعرفها، وهى الإيجاز فى اللفظ والتركيز فى المعنى دون الإخلال

بما درجت عليه من الوضوح والتمييز"(فلسفة اللغة العربية/ المكتبة الثقافية/ أول نوفمـــبر ١٩٦٥م/ ٥٨ـــ ٥٩). كذلـــك أثنى والد المؤلف على هذه الخصيصة فى اللغة الفصحى قائلا إن أية لغة غير العربية لا تعرف إلا كلمة واحـــدة للتعبير عن المشى للرجل والمرأة على السواء، أما لغتنا فتقول عن المرأة: "تتأوَّد" و"تتبختر" و"ترْفُل" وغير ذلك من الكلمات التى تصور تأنق المرأة فى مشيتها وتنطق بما كان لذلك من أهمية(العرب والحضارة الأوربية/ المكتـــبة الثقافـــية/ ١٥ أغسطس ١٩٦١م/ ٦٢). ومرة أخرى نقول: لم يجدوا فى الورد عيبا، فقالوا له: يا أحمر الخدين! على كل حال لا ينبغى أن تضيق منا الصدور، فمصيرها أن تروق وتحلو! والمهم أن يفيق "أولاد الإيه" العـــرب مـــن هذا الخُمَار الذى هم فيه، وعندئذٍ، لا قبلئذٍ، لن نسمع مثل هذه التصايحات التى تحاول التشكيك فى كل شىء من تراثنا العظيم! لكن مـــتى؟ "تلك هى المسألة" كما يقول سيدنا شكسبير! أما الآن فواضح أنه "لا حياة لمن تنادي"!

وبهـــذا نكون قد انتهينا من مناقشة فكرة المؤلف الرئيسية بتفصيلاتها المخـــتلفة، وتـــبقى بعض النقاط الفرعية التى تحتاج إلى شىء من التريث إزاءها. ومن ذلك قوله إن اللغة العربية "هى اللغة الوحيدة فى العالم التى لم

تـــتغير قواعدها الأساسية منذ ١٥٠٠ سنة كاملة. قد يرى البعض فى ذلك رسوخًا واستمراريةً ودليلاً على رصانة اللغة، لكنى أرى فيه جمودًا وتحجرًا يـــنعكس سلبيًّا على العقل العربى"(ص ١٣). وهذا كلام لا نوافق المؤلف عليه بعدما بيّنا كيف أن كل ما قاله عن عيوب هذه اللغة هو مجرد دعاوَى قائمـــة على الشبهات المتعجلة، ولا أزيد. والواقع أن من الصعب الاقتناع بأن طول عمر العربية دليل على التحجر، وبخاصة بعدما رأينا أنها لم تكفّ يومـــا عن التطور كما وضّحْتُ فى هذا البحث، وأن التأليف بها فى شتى المجالات والعلوم والفنون مستمر على الدوام. إن طول عمر لغة القرآن إنما هـــو برهان جلىّ على أصالتها التى لم تستطع لغة أخرى أن تجاريها فيها. ولقـــد دفعت هذه الأصالة العجيبة كبار الأدباء العرب النصارى المتمكنين من لغتهم والغيورين عليها والعارفين بفضلها وعبقريتها إلى الإشادة بذلك الســـر الذى حمى تلك اللغة من الاندثار أو على الأقل من التغير الجذرى الـــذى من شأنه أن يقيم حاجزا صَلْدا ما بين ماضيها وحاضرها، أو من الـــتحلل وإفساح المجال للهجاتها المختلفة مثلما حدث لغيرها من اللغات، ولم يمـــنعهم عدم إيمانهم بدين محمد من القول بأن ذلك السر هو القرآن. ومـــن هؤلاء سليمان البستانى مترجم الإلياذة الذى كان يعرف عددا من

اللغـات الأجنبـية، ومـنها اليونانية القديمة (إلياذة هوميروس/ دار إحياء الـتراث العربى/ بيروت/ ١/ ١١٣ـ ١١٥)، وجرجى زيدان (مختارات جـرجى زيـدان/ مطبعـة الهـلال/ القـاهرة/ ١٩٣٧/ ١٨٧ ـ ١٨٩). وإلى القـرآن الكـريم أيضا تعزو ميّ زيادة النصرانيةُ اللبنانيةُ المتمصِّرةُ فصاحةَ المسلمين العربِ واستقامةَ لفظهم وجمالَ نطقهم وفخامةَ أسـلوب الكاتـبين منهم (باحثة البادية وعائشة التيمورية/ كتاب الهلال/ يونـيه ١٩٩٩م/ ٦٠). وبالمناسـبة لقد أحدث الأتراك فى لغتهم تغييرات كثيرة وعنيفة عامدين متعمدين كى يبتعدوا عن مدار العربية ظنا منهم أن ذلـك هـو المفـتاح الذى سيلحقهم بأوربا فى التفوق والتحضر والتقدم الاقتصـادى والعسـكرى، بَـيْدَ أن تركيا ما زالت دولة من دول العالم الثالـث، وتعـانى من كل ما تعانى منه دول ذلك العالم، ولم يشفع لها ما فعلـته بلغتها أو بدينها فى هذا السبيل بشىء! بل إن أوربا لا تزال تقف مـنها موقـف المتربص الكاره، وتأبى عليها أن تلتحق بالاتحاد الأوربى لا لشىء إلا أنها دولة مسلمة! بعد كل الذى فعلته؟ إى وربى بعد كل الذى فعلـته! فما رأى مؤلفنا الفاضل؟ وعلى الناحية الأخرى هاهى ذى دول الـنمور الآسيوية قد أحرزت فى الفترة الأخيرة نهضة اقتصادية عظيمة من

دون أن تحدث فى لغاتها أو دينها هذا الذى فعلته تركيا الكمالية! فما رأى مؤلفنا الفاضل فى هذه أيضا؟

كذلك يقول سيادته إن "ظاهرة رفض المساس باللغة العربية هى جزء مـــن ظاهرة أعم أصبحت مسيطرة على المجتمعات العربية، فقد استشرى منذ الثلث الأخير من القرن العشرين تيار جارف يعتبر كل بدعة مكروهة، ويـــرى فى أى فكر حرّ متطور محاولةً شيطانية لتقليد الغرب ونَبْذًا للدين والثقافة العربية الأصيلة"(ص ٥٨). ويؤسفنى أننى لا أستطيع أن أتفق معه فى هـــذا التعلـــيل، وإلا فـــأين مكان والده والشدياق وبطرس وسليمان البســـتانى وناصيف وإبراهيم اليازجى وجرجى زيدان وخليل مطران وابن بـــاديس وشكيب أرسلان ومحمد كرد على والبشير الإبراهيمى والطاهر والفاضل ابنى عاشور والرافعى والعقاد وطه حسين والزيات وعثمان أمين وحســـن الشـــريف ومحمـــد محمد حسين ومحمود شاكر وبنت الشاطئ وشوقى ضيف ومحمد شوقى أمين ومحمد خليفة التونسى وعلى الطنطاوى ومحمد الغزالى وحسين نصار ونجيب محفوظ وعبد الصبور شاهين وفاروق شوشـــة وغيرهم من الكتاب والأدباء العرب الفطاحل من هذه النـــزعة، وهم قد جاؤوا قبل ظهورها بزمن طويل، ولهم رؤية للدين وللحياة تختلف

عن رؤية أصحابها؟ وأين مكان واحد مثلى لا تربطه أية رابطة بالجماعات الدينية التى يرمى المؤلف بكلامه ناحيتها، وأرى أنهم كثيرا ما يسيئون لدين محمـــد عليه السلام، وإن ظنوا بحسن نية أنهم يحسنون صنعا، إذ هم يحبون هـــذا الديـــن العظيم حُبًّا جمًّا، لكنهم قد يخطئون السبيل لخدمته؟ بل أين منهم أيضا مكان أحمد لطفى السيد، الذى كان، رغم كل ما هو معروف عـــنه من أفكار لا تعجب كثيرا منا، يحمل على العامية حملة شعواء واسمًا إياهـــا بأنهـــا ممســـوخة الألفـــاظ، منحطة التراكيب، ملحونة الإعراب؟ (المنتخـــبات/ طبعة المقتطف/ ١٩٤٥م/ ١٢٣). ثم من قال إن الجماعات الدينـــية المشـــار إليها تهتم أصلا بمسألة كهذه؟ إن كل ما تهتم به لا يكاد يخـــرج عن قضية الحلال والحرام بالمعنى الضيق لهذين المفهومين، أما اللغة فخارج دائرة اهتمام أفرادها بوجه عام. إن المسألة فى وضعها الصحيح هى أن ســـيادته يتـــبنى قضية خاسرة، فضلا على أنه لم يستطع أن يربحنا، ولو بالباطل، إلى صفّه. لكنه للأسف لا يريد أن يعترف بهذا، فما العمل؟ نحن مقتنعون مثله، بل أشد منه، أننا متخلفون، وأن الغرب أقوى منا، وأن لديه أشـــياء كثيرة فى العلوم والصناعات والفنون والنظام والتخطيط والتنسيق والتعاون والجَلَد على العمل والصبر على مشقات الحياة...إلخ لا بد لنا من

الاســتفادة منها والتتلمذ عليه فيها، وبخاصة أن كثيرا من القيم التى عنده هــى ممــا يدعــو إليه الإسلام أيضا، مع تفوقها فى الإسلام وخلوها من الشــوائب والأوضــار الــتى تمازجها لديه. لكن هناك شيئين لا نفكر فى التخلى عنهما ولا فى مطاوعة الغرب فى التفريط فيهما أبدا: اللغة والدين! فــإن وافقَنا الكاتبُ على هذا فنحن أحباب، وإلا فهو فى طريق، ونحن فى طــريق، ومعنا والده أو بالأحرى روح والده ترفرف علينا وتشجعنا على مخالفة ابنه وتنكر عليه هذا الموقف تمام الإنكار!

وزرايــةً مــن الكاتب أيضا على اللغة العربية يزعم أن عشق العرب الأول يتمثل فى التلاعب بالكلمات. يريد أن يقول إنهم لم يكونوا ينظرون إلى اللغــة عــلى أنها وسيلة للتفاهم بل للعبث وإضاعة الوقت جريا وراء ســجعة أو جــناس أو طباق، أو لتحبير رسائل تقرأ فى ذات الوقت من الــيمين للشمال وبالعكس...إلى غير ذلك من ألوان الزينات الشكلية التى يؤكــد أنهــا لا تفيد فى شيء. وهو يشير فى هذا المقام إلى ما كان يفعله واصــل بن عطاء، الخطيب والمفكر المعتزلى المشهور الذى كان فى لسانه لثغة، فكان يتجنبها فى خُطَبه مستبدلا كل كلمة فيها "راء" بكلمة أخرى ترادفها تخلو من هذا الحرف (ص ٨٤ــ٨٥)، رغم أن هذا المثال إنما يدل

علــى عكس ما يريد الكاتب، إذ لا أظن لغةً أخرى تستطيع أن توفر مثل هــذه الإمكانــية العجيبة لأحد من أبنائها بأى حال! كذلك فإننى، وإن كنــت فى ذوقى الكتابى كأبناء عصرى من الكتاب والأدباء ممن لا يتبعون فى أســاليبهم ســبيل المحسّــنين المزخرفين، لا أستطيع أن أنكر أن هذه التزيينات إنما تدل رغم ذلك على مدى ما تتمتع به هذه اللغة العجيبة من إمكانات صوتية ومعنوية، وعلى ما كان هؤلاء الأدباء يملكونه من موهبة أســلوبية وعقلية تتيح لهم هذه السيطرة الرائعة على لغة أمتهم. صحيح أن بعضهم كانت تستغرقه النزعة الشكلية إلى حد مبالغ فيه بحيث لا يقدم لنا مــا يكتبه شيئًا فكريًا ذا قيمة كبيرة، بيد أن كثيرًا جدًّا أيضًا من النصوص التى تزخرفها البديعيات كانت تحتوى فى ذات الوقت على مضمون عقلى وأدبى رائع، ومنها "رسالة الغفران" لأبى العلاء المعرّىّ، ومقامات الهمدانى والحريــرى الــتى يــرى فيها نقادنا المحدثون حتى من اليساريين أنفسهم الأســاسَ الأولَ للقصــة العربية القصيرة ، وكذلك "ألف ليلة وليلة" التى بهرت المستشرقين وكتبوا عنها البحوث المطوَّلة ورَأَوْا فيها إبداعا أدبيا قل أن يوجــد له ضَــرِيب! ومع ذلك كله فإن العرب لم يكونوا كلهم من عشــاق التلاعــب بالكلمات، وإلا فهل كان عبد الحميد الكاتب أو ابن

المقفـــع أو ســـهل بن هارون أو الجاحظ أو ابن سلاّم أو ابن قتيبة أو أبو الفرج الأصفهاني أو ابن المعتز أو أبو حيان التوحيدى أو ابن جنى أو القالى أو القاضـــى الجـــرجانى أو عبد القاهر أو أسامة بن منقذ أو ابن حزم أو الغـــزالى أو الفـــارابى أو ابن سينا أو ابن رشد أو مسكويه أو الطبرى أو القرطبى أو الزمخشرى أو القُشَيْرى أو السيوطى أو ابن خَلْدون أو جابر بن حـــيان أو ابن الهيثم أو أبو بكر الرازى وغيرهم، وهم بالألوف، يتلاعبون بالكلمات؟ لقد كان هذا الاتجاه يا أ. شوباشى محصورا فى بعض العصور فحســـب، وحـــتى فى هـــذه العصور لم يكن كل الكتاب يجرون عليه فى مؤلفـــاتهم، ولا كان الذين يجرون عليه يتّبعونه فى كل ما يؤلفون. ولست أظـــن أن مـــثل هذه الحقائق الدامغة كانت غائبة عمَّن أحسب، صوابًا أو خطـــأً، أنهـــم أمدّوك بالنصوص القديمة وعناوين الكتب التى أُخذت منها وأسماء مؤلفيها ممن لا أظنك على معرفة بهم إلى الحد الذى يعكسه كتابك، نظـــرا لثقافـــتك الفرنسية التى أقدّرها رغم هذا! وعلى أية حال فقد كان ينـــبغى أن ينـــبهك إلى ذلك الأمر الأستاذُ الذى ذكر لى قُبَيْل دخولنا إلى الأستوديو لمناقشة كتابك أن دوره انحصر فى قراءة مخطوط الكتاب وإجازة نشره، وذلك عندما سألتُه عما إذا كان هو الذى أمدَّك بالمعلومات الخاصة

بـــالأدب العربى التى لا يعرفها عادة إلا أهل الاختصاص مما استبعدتُ معه أن تكون قد توصلت إليها وحدك فى مظانها التى تستعصى إلا على خبير فى الموضوع.

ومن النقاط التى يثيرها الأستاذ الشوباشى دون أى داع مسألة قدسية اللغة العربية، التى قال، وأنا معه فى هذا الذى قال، إنه لا يوجد فى القرآن أو الأحاديـــث النـــبوية مـــا يدل على صحتها رغم ما ذكر من أن بعض المـــتحجرين، حسب وصفه، يرون أنها مقدسة فعلا(ص ٧١ وما بعدها). وهـــو يرمى من وراء هذا إلى أنه لا مانع من الأخذ بما يدعو إليه فى كتابه من تغيير اللغة على النحو الذى يقترحه، ونرى نحن أنه سيكون له عواقب وخـــيمة إذا تحقق ما يريد. ثم إنه لا يكتفى بهذا، بل يتساءل عما إذا كان هـــناك نص فى كتاب الله أو سنة رسوله يؤكد أفضلية العرب على سائر الأمـــم. وهو يرمى هنا أيضا إلى نفس الغاية فيما أظن. وأنا معه هنا أيضا فى أنْ لـــيس فى القرآن المجيد أو الحديث النبوى الشريف ما يدل على أن العـــرب هـــم أفضل الأمم. بل إن فى كلام النبوة أنه لا فضل لعربى على عجمـــى إلا بالتقوى والعمل الصالح. وأزيده من الشعر بيتا حسبما يقول إخوانـــنا السعوديون فأقول له ما أكرره دائما من أن العرب فى هذا العصر

هم عنوان الهوان والمذلة والبلادة والضياع. لكن هذا كله لا يوصّل، فيما أرى، إلى شيء مما يريد بلوغه من تغيير اللغة على النحو الذى يرمى إليه. فلغتنا، وإن لم تكن مقدسة، تستحق منا أن نهيم بغرامها ونفاخر أصحاب اللغـــات الأخرى بها ونؤمن أنها لغة مباركة لأنها هى الوعاء الذى اصطفاه الله تعـــالى لحفظ كتابه الكريم إلى يوم الدين! والواقع أنه إذا لم يكن هذا الاصـــطفاء كافـــيا لهُيَامنا بتلك اللغة وحرصنا على الاعتزاز بها فلا أدرى كيف يمكن أن يكون هناك سبب للاعتزاز بأى شيء فى الحياة! وعلى أية حـــال لقـــد ذكر سيادته أن من الأمم الأخرى من ينظر نظرة تقديس إلى لغـــته، وعـــلى هذا فحتّى لو قدّسنا لغتنا فلن نكون بدعا فى ذلك. لكن العـــرب الآن لا يقدسون كلهم لغتهم أيًا كان معنى التقديس، وإلا لكانوا أتقـــنوها كما ينبغى أن يكون إتقان اللغة القومية، ولم يكن معظم طلابهم ومثقفـــيهم بهـــذا المستوى المتدنى فيها وفى غيرها. إن الذين يعتزون بلغة القـــرآن، أو إن شئت فقل: إن الذين يقدّسونها، إنما هم الذين اطّلعوا على أســـرارها ويســـتطيعون من ثَمَّ أن يحسّوا بما فيها من عبقرية، أما العامة، وكذلـــك أشباه العامة ممن لا يمكنهم تذوق جمالها حتى لو كانوا حاصلين عـــلى أعلى الشهادات الجامعية، فليسوا من تقديسها فى شيء. هذا، وقد

تناقض المؤلف في تحديد الزمن الذى يزعم أن نزعة تقديس اللغة العربية قد بدأت فيه: فمرة يقول إنه العصر الأموى بما كان سائدا فيه من اتجاه عروبى يجعل الأولوية فى الدولة للعرب مُؤْثِرًا إياهم على بقية الأجناس المسلمة(ص ٨٧ــ ٨٨)، ومرة يقول إنه العصر العباسى، وبخاصة منذ عهد المعتصم حين أطلت الشعوبية برأسها وأخذ المسلمون من غير العرب يزايدون، كما يقول، على اللغة العربية ويبالغون فى تبجيلها رغبةً منهم فى إثبات حسن إسلامهم (ص ٩٥ــ ٩٦).

وهنا نجد الكاتب يُدْخِلنا فى قضية جانبية لا علاقة لها، فيما نرى، بموضوع الكتاب الذى هو المناداة بإصلاح اللغة العربية، إذ يقفز فجأة فيخصص فصلا يتحدث فيه عن الدور الذى قام به النصارى العرب قديما منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث فى مجالات الأدب والعلم(ص ٩٦ وما بعدها)، وهو ما لا نريد المشاحّة فيه، اللهم إلا حين يتنكبّ سبيل الحقيقة زاعما أن نصارى العهد العباسى، عندما رأَوْا أنفسهم وقد أُبْعِدوا عن مجالات الإبداع الأدبى بسبب من تقديس المسلمين للغتهم وكراهيتهم لمشاركتهم إياهم فى ميادينها، قد انكبوا على العلوم الطبيعية تاركين للمسلمين التفوق فى الأدب وإبداعاته. وهذا نص كلامه: "وعندما

اكتملت سيطرة العناصر غير العربية على الدولة فى العصرالعباسى كادت دراسة اللغة تقتصر على المسلمين وحدهم نظرا لأنها تتم فى المساجد والمدارس الدينية، وارتبطت بحفظ القرآن. ولجأ المسيحيون إلى العلوم فبرعوا فيها وظهرت أجيال من الأطباء والفلاسفة وعلماء الرياضيات استعان بهم الخلفاء والأمراء، أما المسلمون فكادوا يغيبون عن ساحة العلم ودراسته فى مناخ من التردى الحضارى"(ص ٩٧). فالمعروف أن النصارى فى تلك العهود قد استأثروا بترجمة العلوم، أما الاشتغال بالعلم ذاته فكان نصيب المسلمين فيه هو الأعظم، والأسماء المشهورة فى هذا المجال هى أسماء جابر بن حيان والحسن بن الهيثم وابن سينا والرازى وعلى بن عيسى والزهراوى وابن البيطار ورشيد الدين الصورى وابن رشد وابن أبى أُصَيْبِعَة وأبى جعفر الغافقى والبيرونى وأبى معشر البلخى والفرقانى والبوزجانى والخوارزمى وعبد اللطيف البغدادى وابن النفيس وعلى بن رضوان وابن الجزار وعمار بن على... إلخ؟ وهو نفسه يعود فيذكر أسماء بعض العلماء العرب المسلمين هادما بذلك ما قاله قبلا عن انفراد النصارى تقريبا بالعلوم فى مقابل انفراد المسلمين بالأدب واللغة(ص ١٠٠).

ومما لا نوافق سيادته عليه أيضا اتخاذُه من استحالة إلمام أى شخص

بجمـــيع مفردات العربية وأشعارها تكأةً للهجوم على الفصحى وقواعدها والدعـــوة إلى هجرانها والاستعاضة عنها بلغةٍ لا إعرابَ فيها ولا مترادفاتِ ولا تثنـــيةَ ولا تأنيثَ مما أفضنا فى مناقشته من قبل(ص١١٥)، إذ إن هذا العجز غير خاص بلغتنا وشعرها، بل يصدق على جميع اللغات. وهذه هى طبـــيعة الحياة كلها لا الأدب والشعر فحسب، فلكلٍّ منا من أىّ شىء فى الدنـــيا نصيب محدود لا يعدوه رغم ترامى أطراف الأرض وكثرة الخيرات الإلهـــية. ترى هل يمكن أن يملك أى إنسان جميع السيارات مثلا أو جميع البيوت أو جميع الحقول أو جميع الكتب أو جميع المصانع أو جميع الأحذية الـــتى فى الدنيا؟ فلماذا يحاول الكاتب أن يوهمنا بأن فى عجز العربى، مهما كان نصيبه من الثقافة اللغوية، عن استيعاب مفردات لغته كلها فى عقله ما يدعـــو إلى الاســـتغراب وما يستلزم فوق ذلك أن نهجر هذه اللغة إلى لغة أخـــرى ليس فيها كل هذه المفردات التى تتضمنها الفصحى والتى تصل، كما يقول، إلى مليونَىْ كلمة؟

وهـــنا نـــراه يـــنعَى على العربية خلوها من المعاجم العملية السهلة الموجـــودة فى اللغات الأخرى(ص ١١٥). ولست فى الحقيقة أعرف ماذا يقصـــد مؤلفـــنا بخُلُوّ لغتنا من هذا اللون من المعاجم، فالمعروف أن هناك

معاجم عربية كثيرة، لكن المشكلة تكمن فى أن العرب لا يهتمون بالثقافة والقـــراءة عموما، وبخاصة فى ميدان اللغة، اللهم إلا المتخصصين، أما سائر أفراد الشعب فهم فى عمومهم فى واد، والاهتمامات الثقافية فى واد. وحتى إذا كان يقصد بالمعاجم السهلة العملية تلك التى تُرتَّب فيها الكلمات بناء عـــلى رسمهـــا لا عـــلى جذرها اللغوى كما هو متبع فى المعاجم العربية الأصـــيلة، فهذا الضرب من المعاجم موجود عندنا أيضا. ولدىَّ فى مكتبتى الخاصـــة عـــدد منها رغم أنى أفضِّل الطريقة المعجمية التقليدية لملاءمتها لطبـــيعة لغتـــنا، لكنى اشتريتها من باب اقتناء كل ما أستطيع اقتناءه من الجديـــد فى ميدان اللغة والأدب، ولتكون أيضا فى متناول أولادى الصغار إذا ما أرادوا أن يبحثوا عن معنى كلمة دون أن يرهقوا أنفسهم فى البحث عن أصل مادتها. ومن هذه المعاجم "منجد الطلاب" و"الرائد" و"لاروس" وغيرها. وتتجاوز المعاجم ودوائر المعارف التى فى مكتبتى فى كل ما يخطر عـــلى البال تقريبا من العلوم والفنون مائتين رغم أنها ليست من المكتبات الغنـــية الـــتى أراهـــا أو أسمع بها عند بعض العلماء. إلا أننى حريص أشد الحـــرص عـــلى امتلاك أكبر عدد ممكن من هذا الضرب من الكتب لأنها تســـهل الوصول إلى المعلومات التى أبغيها فى أسرع وقت وبأوجز عبارة.

لكـــن كـــم مـــن خريجى أقسام اللغة العربية، ودعنا من خريجى الأقسام الأخــرى، يهـــتم بأن يكون فى بيته معجم، أو أن يفتح أى كتاب أصلا؟ هذه هى المشكلة لا اللغة العربية وصعوبتها المزعومة! وأنتهز الآن الفرصة لأُعِيد القول هنا بصوتٍ عالٍ وبملء فمى إن مثل هذه المزاعم والشكاوَى ســـوف تخـــتفى وتصـــبح فى خـــبر "كان" يوم يُقْبِل العرب على القراءة ويهتمون بترقية عقولهم وأذواقهم كما يهتمون ببطونهم وتسلياتهم التافهة، وكمـــا كان أجدادهم يهتمون بالعلم والأدب وشؤون الفكر والثقافة أيام مجدهم الحضارى!

ومن آراء المؤلف الغريبة أيضا التى لا أدرى من أين عنّت له قوله إن عندنا نحن العرب منذ قرون طوال شيزوفرانيا لغوية، إذ عندما نترك أنفسنا عـــلى سجيتها فإننا نستعمل اللهجة العامية، أما عندما نكتب أو نقرأ أو نســـتمع إلى نشرات الأخبار فإننا نتحول إلى اللغة الفصحى(ص ١٢٥). وهو رأىٌ فطيرٌ لا ينهض على أى أساس، فنحن لا تتغير شخصيتنا عندما ننتقل من مستوى لغوى إلى مستوى لغوى آخر حسب السياق الذى نجد أنفسنا فيه، وإلا لكان البشر جميعا مصابين بألوان وألوان من الشيزوفرانيا لأنهـــم دائمو التنقل من حالة لأخرى فى كل وقت من النهار والليل: ففى

البيـــت نـــرتدى المـــنامة والشبشب، أما عندما نخرج إلى الشارع فنلبس القمـــيص والسراويل، وفى الحفلات والمناسبات الرسمية نأخذ كامل زينتنا ونلبس البدلة ورباط الرقبة والحذاء والجورب، ونتعطر ونضع منديلا بارزا فى جيب البدلة العلوى للزينة...إلخ. ونحن حين نكون فى الشارع فى عجلة من أمرنا فإننا نسكت صراخ بطوننا بشطيرة كيفما اتفق، على حين أننا لو كـــنا بالبيت فلن نرضى من زوجاتنا بأقل من الطبيخ واللحم والسَّلَطات والجـــبن والفواكه...وهلم جرًّا. كذلك فالواحد منا يكون خارج البيت مجـــاملا مـــع الآخرين، بينما يترك نفسه على طبيعته مع أهل بيته فيصرخ ويـــنفعل، وقد يكون وَعْرا شديد الوعورة...وهكذا، وهكذا. ترى أيخطر فى بـــال أحدنا أن يسمّى شيئًا من هذا شيزوفرانيا؟ وعلى كل حال فهذا الانتقالُ من مستوى لغوى إلى مستوى لغوى آخر موجودٌ فى كل اللغات، وليس مقصورا على لغة القرآن، إذ الحياة فى كل مجالاتها ومظاهرها مرتبةٌ درجـــاتٍ بعضُها فوق بعض. والفصحى، كما سلف القول، تشبه ارتداء الملابس الرسمية كاملة، أما عامية المثقفين فتشبه القميص والسراويل، وأما عامـــية غير المتعلمين فتشبه مباذل العمل، وتبقى عامية الدهماء والغوغاء، وهـــى أشبه ما تكون بملابس الكناسين وكاسحى المجارى. ولست أقصد

بهذا تحقيرا لأى أحد أو لأية مهنة. إنما هو مَثَلٌ ضَرَبْتُه لأبين للقراء الأفاضل أن المؤلف لا يقول كلاما سليما حين يتهم العرب من دون سائر خلق الله بأنهم مصابون بداء "الشيزوفرانيا"!

ولا بـــد من التشديد هنا على أن الفرق بين اللغة الفصحى واللهجة العامـــية لـــيس كالفرق بين لغتين مختلفتين كما يزعم مؤلفنا خطأً، وإلا فكـــيف يفهـــم العامىُّ المغرقُ فى الأميةِ والجهلِ كلامَ الخطيب يوم الجمعة والآيـــات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة وأبيات الشعر التى تتضـــمنها الخطـــبة عادة؟ وقل مثل ذلك فى نشرات الأخبار والتحليلات السياســـية والكـــلمات التى تلقى فى الندوات العامة. كذلك كيف يفسر الكاتـــب مقدرة ابنتى الصغيرة التى لا تزال فى المرحلة الابتدائية على فهم القصص والمجلات والكتب التى أشتريها لها لتقرأها وتستمتع بها، حتى إنها لتفاجئنى بترديد بعض عباراتها الفصحى كما فعلت الليلةَ مثلا حين كنت أهدهدهـــا وهى بجوارى تقرأ فى إحدى مجلات "ميكى"، إذ انطلق لسانها قائلةً: "لماذا تُرَبِّتُ على كَتِفى يا أبى؟". هكذا بالنص كما شكَّلتُ الجملة، ممـــا جعلنى أهتف بصوت مسموع وأنا أقهقه: "تعال يا أستاذ شوباشى، اسمع!"، وهو ما دفعها إلى السؤال باستغراب: "من الأستاذ الشوباشى هذا

يــا بابا؟" (قالتها هذه المرة بالعامية)، فضحكتْ زوجتى، التى تعرف الأمر وتــتابعه معــى أوَّلاً بأوَّل... والطريف أن هذه الصغيرة نفسها كثيرا ما تســألنى عــن بعض الكلمات والعبارات العامية التى لا تدرك معناها فيما أحــب الاســتماع إلــيه من أغانٍ مثل أغنية "غُلُبْت أصالح فى روحى" لكوكــب الشرق، التى لم تفهم منها عبارة "صعبان علىّ اللى قاسيته، فى الحــب من طول الهجران"؟ ثم كيف يفسر سيادته استطاعتى أثناء طفولتى الأولى فى الكُــتّاب فهم قصص الأنبياء التى كانت تقع فى يدى بين الحين والحــين فى خمســينات القرن الماضى حين كانت القرية المصرية غارقة فى ظلمات الأمية إلى حد كبير، وكل ما كان فى جَعْبتنا من الفكر والثقافة فى ذلــك الحين قواعدُ الإملاء وعملياتُ الحساب الأولية وحفظُ بعض السُوَر القرآنــية؟ ومــاذا يقول فى القراء الذين لم يحصلوا على أية شهادة علمية، لكنهم يحبون القراءة ويستطيعون أن يفهموا ويتلذذوا بمطالعة الكتب الراقية الــتى ألفهــا فطاحل الكتاب والأدباء كالعقاد والمازنى وطه حسين وأحمد أمــين وفــريد أبو حديد مثلا؟ وكيف يا ترى يفهم هذا النوعُ من القراء آيــاتِ القرآن وأحاديثَ النبىّ، وكتب التفسير والفقه وغيرها من المؤلفات التراثــية؟ إن الكاتب يبدو وكأنه يتحدث عن مخلوقات تعيش فى الفضاء

الخـــارجى لا نعرف عنهم شيئا إلا ما تحكيه الأساطير والقصص الخرافية، فهـــو يأخذ راحته تماما فى الحديث عنهم وعن غرائب أحوالهم مطمئنًّا إلى أن أحدا لن يستطيع أن يعقِّب على ما يقول!

ثم بـــالله علـــيكم أيها القراء، هل يُعْقَل أنه إذا ذهب واحد مثلى إلى الـــبقال وأصابه خَبَلٌ فى عقله (بعد الشرا) وقال له: " أعطنى يا بُنَىَّ رغيفا مـــن الخبز، وزِدْ عليه قطعة من الجبن"، أن البقال لن يفهم من هذا الكلام شيئا كما يزعم أ. الشوباشى؟ طيب ما رأيك يا أ. شوباشى أنى أنا نفسى قد فهمت هذه الجملة من أول وهلة؟ تَصَوَّرْ! ألست أستحق منك جائزة؟ لا تضـــحكوا من فضلكم أيها القراء الكرام من منطقى هذا فى الرد، فإن مثل تلك الدعوى لا يُرَدّ عليها إلا بذاك المنطق! والواقع أن هذا الكلام هو مـــن عيّنة الزعم المضحك بأن المجمع اللغوى يقول فى تسمية الساندويتش: "شـــاطر ومشـــطور وبينهما طازج"! ومن الغرائب فى هذا السياق قول المؤلف إن العربى فى كل العصور والأزمنة كان يهجر الفصحى ويلجأ إلى العامية يعبر بها عما فى صدره حتى إنه لو ذهب لحبيبته وقال لها: "أنا هائم فى غـــرامك" أو "وجهك الصبوح يهز كيانى" لانتهت العلاقة بينهما بهذا الغـــزل البليغ (ص ١٣٥). وطبعا لو أنه، بدلا من هذا، غازلها بالفرنسية

التى لا تعرف منها حرفا فلسوف ترتمى على صدره من فورها وتُكَلْبِش فيه واقعــةً لشوشــتها فى هواه، ولن يستطيع أحد عندئذ أن يفكّه منها ولو بالطــبل الــبلدى! لكــن ماذا تقول يا أستاذ فى كل الغزل العربى طوال الخمســة عشــر قرنا الماضية وزيادة، وقد كان كله بالفصحى، اللهم إلا الأغــانى العاطفــية فى العقــود الأخيرة، بل كانت بعض الشعراء يبعثون رسائلهم إلى حبائبهم بهذه اللغة كما فعل بشار والعباس بن الأحنف وابن زيــدون والــبهاء زهير، لا بالعامية كما تظن أنت؟ ملعوبة هذه ؟ أليس كذلــك؟ ومــا رأيك فى أن المحبين والمحبّات، حتى فى عصرنا هذا، حين يكتب بعضهم لبعض رسائل غرامية إنما يكتبونها عادة بالفصحى، ويكون إذا اســتمعوا إلى الأغانى الفصيحة من مثل: "أيظن؟" أو "لا تكذبى"، أو "رسالة من امرأة مجهولة" أو "لستَ قلبى" أو "حبيبَها" أو "قصة الأمس" أو "أراك عَصِىَّ الدمع" أو "فَجْر" أو "جبل التَّوْباد" أو "عُدْتَ يا يوم مولدى" أو "أشــواق" أو "لا تُوَدِّعْــنى حبيبى"؟ بل إنهم حينما يكون إنما يكون بالفصــحى! ما رأيك فى هذه أيضا؟ ملعوبة؟ ألا توافقنى على هذا؟ حتى أحمــد رمزى فى الفِلْم المشهور الذى كان يقوم بدور السّنّيد فيه كالعادة الأستاذ غراب (عبد السلام النابلسى)، كان يستعين بسعد عبد الوهاب فى

كـــتابة الخطابات الملتهبة للممثلة إيمان باللغة الفصيحة مما لا تُعَدّ الجملتان اللـــتان استشهدتَ بهما سيادتك بجانبه شيئا بالمرة! أتستطيع أن تنكر هذه الواقعـــة أيضا؟ إنك إن فعلت فسوف أرفع دعوى قضائية وأطلب شهادة الممثلَيْن المذكورَيْن، ولا أظنهما يجحدان الشهادة، وإلا فهناك نسخة الفلم، وهى لا يمكن أن تغير ذمتها! وقِسْ على ذلك الفلم غيره من الأفلام!

وبعد، فقد آن لنا أن نلقى القلم ونستريح، ولكن قبل أن نفعل لا بد أن نبين للقراء ماذا نقصد بكلمة "عبقرية" حين نصف بها لغتنا الفصحى: أول شـــىء أنها لغة طويلة العمر، إذ يبلغ عمرها أكثر من ستة عشر قرنا بكثير، وهذه الخصيصة دليل على أصالتها وعلى أن فيها سرًّا وبركة، وإلا مـــا استطاعت أن تقوم بحاجات أجدادنا وآبائنا ثم حاجاتنا نحن أيضا على مدار هذا التاريخ الطويل الذى لم يهبه اللهُ للغة غيرها. لكن أ. الشوباشى لا يســـتطيع أن يدرك هذا المعنى، ونحن ندعو الله له بالاهتداء إلى إدراكه حـــتى لا يتجنى على هذه اللغة العبقرية. وثانى شىء أنها تخلو من التنافر فى حـــروف كـــلماتها بحيث لا تجد فيها مثلا كلمة تحتوى على "دال" يوجد قبلها أو بعدها "طاء" أو "ظاء"، أو كلمة تحتوى على "جيم" يجىء قبلها أو بعدهـــا "غين"، أو كلمة تحتوى على "سين" يأتى قبلها أو بعدها "شين"،

إلا فى الشاذ النادر إن وُجِد... إلخ. وعلى هذا فأنت حين تقرؤها أو تتكلمها لن تجد فيها ما يثقل على لسانك أو أذنك أو ذوقك. بل إنها لا تقبل أن تكون فيها كلمة تبدأ بحرف ساكن. وهذا وذاك مما لا يتوفر لغيرها مما نعرفه على الأقل من اللغات الأوربية التى يفاخرنا بها كل من فى قلبه شىء تجاه العربية الفصيحة! وثالثا فهذه اللغة كل كلماتها موزونة، والأوزان التى تجرى عليها تلك الكلمات معروفة ومعدودة ويمكن أن يُلِمّ بها أى شخص فى عجالة: فالأفعال الماضية مثلا إذا كانت مكونة من ثلاثة أحرف لا تخرج عن أن تكون على وزن "فَعَلَ" أو "فَعِلَ" أو "فَعُلَ". والمضارع من الوزن الأول يكون إما على وزن "يَفْعَلُ" أو "يَفعِلُ" أو "يَفْعُلُ". أما من الوزن الثانى فهو إما على وزن "يَفْعِلَ" أو "يَفعَلَ"، ولا ثالث لهما. ويبقى الوزن الثالث، والمضارع منه ليس له إلا صورة واحدة هى "يَفْعُل"... وهذا مجرد مثال. ولهذا كانت اللغة الفصحى لغة مُوَقَّعَة تمتع الأذن، وهذه قيمة يهتم بها ذوّاقو اللغات. كذلك فكل وزن من أوزان الكلمة له معنى أو أكثر، ومن ثم كان من السهل فى كثير من الأحيان معرفة المعنى الإضافى للكلمة بسهولة: فمثلا المصادر الثلاثية التى على وزن "فُعَال" تدل عادة على مرض أو ألم مثل: "دُوَار، زكام، صداع،

كُبَاد، كساح، قراع، خُنَاق"... إلخ. كما أن اسم الآلة لا يخرج فى صِيَغه القياسـية عـن الأوزان التالـية: "مِفْعَـل، مِفعال، مِفْعَلة، فَعّال، فعّالة، فـاعُول"...وهلم جرا. ثم إن الإعراب الذى يزعج بعض الناس هو أيضا سـر من أسرار هذه اللغة العجيبة التى انبثقت من قلب الصحراء، لكنْ ما إن نـزل بها كتاب الله حتى انطلقت من عزلتها إلى آفاق العالمية وصارت لغـةَ إمـبراطوريةٍ متراميةِ الأطراف. وهذا الإعراب يعطيها مرونة وحرية وحيوية ليست للغةٍ غيرها. إن كاتبنا يبدى ضيقة بهذه السمة مفضلا عليها أن تجـىء الجملـة على وتيرة واحدة لا تتغير، كالذى لا يعرف من ألوان الأطعمـة إلا " السميط والجبن"، فيظل طول النهار يأكل "سميطًا وجبنًا، سميطًا وجبنًا، سميطًا وجبنًا" حتى مشّشَتْ بطنه من الجبن وتكلّس السميط فـيها، مـع أن خيرات الله فى ميدان الأكل لا حَصْر لها ولا حدّ لتنوعها. لكـن ماذا تقول فيه وفى أمثاله ممن لا يريدون أن يعرفوا أن نعم الله كثيرة وأن فى الدنيا أشياء غير "السميط والجبن"؟ وفضلا عن هذا فإن الفصحى تمـتاز بالـثراء الفاخر فى معجمها اللفظى، فما من شىء أو صفة أو معنى مهمـا كـان من دقته إلا وَضَع له العرب عدة كلمات تنظر إليه من كل زواياه مثلما رأينا فيما قاله حسن الشريف فى مثال "العطش"، وكذلك ما

قالــه محمــد مفيد الشوباشى فى "مشى المرأة"، وما قلته أنا فى بعض أسماء "الســيف". وهناك مزايا أخرى كثيرة ليس هنا موضع تبيانها، فتُطْلَب فى مظانّها.

ونصــل الآن إلى خط النهاية، ولكن قبل أن نطوى أوراقنا لا بد من كلمة حق نقولها فى سيبويه، الذى نادى مؤلفنا بسقوطه. لقد أسدى هذا الرجل إلى لغة القرآن يدًا جُلّى بتأليف أشهر كتاب فى النحو العربى حتى لـيكفى أن يقـال: "الكتاب" ليعرف السامع للتوّ أن المقصود كتاب هذا العـالم الجلـيل. ويزيد الرجلَ فضلا أنه فارسى، على حين أن من العرب الآن مــن يدعون إلى خنق اللغة العربية زاعمين عليها المزاعم ومهوّلين فى أمــر صعوبتها، وكأنها هى الشىء الصعب الوحيد فى العالم، مع أن الحياة كلها صعوبات. إن الأمم القوية هى التى تفرض كلمتها وشخصيتها على الدنــيا لا التى تفرّ منهزمة أمام أول عقبة تصادفها فى طريقها. لقد مضت عدة قرون على العرب والمسلمين وهم موتى أو أشباه موتى، بينما تقتحم أمــم أخرى بلادهم اقتحامًا وتملى كلمتها عليهم وتريد أن تُكْرِههم على أن يعيشــوا بالأسلوب الذى تريده هى لا الذى يريدونه هم، ومنه التخلى عــن لغــة القرآن. وهو الحلم الذى يراودهم منذ أجيال، ولا يريدون أن

يكفــوا عن محاولة جعله حقيقة! فكيف نقبل أن يهان سيبويه، وهو رمز مــن رموزنــا العلمــية والدينية، وكذلك القومية رغم أن الرجل فارسى الأصــل؟ إن العرب هم الذين يتشرفون بسيبويه، وليس هو الذى يتشرف بهم، وإن كان شرفه نابعا من خدمته للّغة التى اختارتها السماء لحمل رسالة الديــن الأخير، الدين الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم والذى تعهد الله بحفــظ كتابه. وعلى هذا فإننا نهتف من أعماق قلوبنا وبأعلى حِسّنا: يعيش سيبويه! ولا عاش من يكره الفصحى ويعمل على تدميرها رغم أنه، بمشــيئة الله تعالى وحوله وطوله، لن يكون أبدا من المفلحين! وأرجو الا يكون الأستاذ شريف الشوباشى من هؤلاء الكارهين، إن لم يكن من أجل شــىء فلأنــه وكيل وزارة الثقافة فى أكبر دولة عربية، ووكيل الثقافة فى مصر ينبغى أن يكون من المتدلهين فى هوى لغة القرآن!

نبذة عن المؤلف

د. إبراهيم عوض (آداب عين شمس)

دكتوراه من جامعة أوكسفورد ١٩٨٢م

له عدد من المؤلفات النقدية والإسلامية منها:

- معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين
- المتنبي - دراسة جديدة لحياته وشخصيته
- لغة المتنبي - دراسة تحليلية
- المتنبي بإزاء القرن الإسماعيلي في تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)
- المستشرقون والقرآن
- ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية
- الترجمة من الإنجليزية - منهج جديد
- عنترة بن شداد - قضايا إنسانية وفنية
- النابغة الجعدي وشعره
- من ذخائر المكتبة العربية
- السجع في القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- جمال الدين الأفغاني - مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)
- فصول من النقد القصصي
- سورة طه - دراسة لغوية أسلوبية مقارنة
- أصول الشعر العربي (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين - دراسة نقدية لرواية "العار"
- مصدر القرآن - دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي
- نقد القصة في مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م
- د. محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا
- سورة النورين التي يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم - دراسة تحليلية أسلوبية
- ثورة الإسلام - أستاذ جامعي يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)
- مع الجاحظ في رسالة "الرد على النصارى"
- محمد لطفي جمعة - قراءة في فكره الإسلامي

- إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية - خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد فى الدفاع عن سيرة ابن اسحاق
- سورة يوسف - دراسة أسلوبية فنية مقارنة
- سورة المائدة - دراسة أسلوبية فقهية مقارنة
- المرايا المشوّهة - دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة
- القصاص محمود طاهر لاشين - حياته وفنه
- فى الشعر الجاهلى - تحليل وتذوق
- فى الشعر الإسلامى والأموى - تحليل وتذوق
- فى الشعر العربى الحديث - تحليل وتذوق
- موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم
- أدباء سعوديون
- دراسات فى المسرح
- دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية
- د. محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة
- دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية - أضاليل وأباطيل
- شعراء عباسيون
- من الطبرى إلى سيد قطب - دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه
- القرآن والحديث - مقارنة أسلوبية
- اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة
- محمد لطفى جمعة وجيمس جويس
- "وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع - قراءة نقدية
- لكن محمدا لا بواكى له - الرسول يهان فى مصر ونحن نائمون
- مناهج النقد العربى الحديث
- دفاع عن النحو والفصحى - الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد
- عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين
- لتحيا اللغة العربية: يعيش سيبويه (رد على هجوم وكيل وزارة الثقافة فى مصر على لغة القرآن وقواعدها)
- التذوق الأدبى
- الفرقان الحق: فضيحة العصر - قرآن أمريكى ملفق

المنار للطباعة

القاهرة ت : ٢٩٦٤٨٤٤ ٠٢

الغلاف تصميم : م/ عصام عبد المعطي

الغلاف الأخير : بريشة سلوى الصغيرة